

أصنام معاصرة

أبو المنصور

أصنام معاصرة

أبو المنصور

الكتاب: أصنام معاصرة

الكاتب: أبو المنصور

عبد الرحمن قلاوون

البريد الإلكتروني:

ar.kalawoun@gmail.com

ISBN: 978-2-9568172-9-1

الطبعة الأولى

1447 هـ - 2026 م

القياس: 16.8 × 23.7

عدد الصفحات: 104

تصميم الغلاف:

Motion Eye Productions

بسم الله الرحمن الرحيم

قد تجدر الإشارة إلى أنّ القصص الواردة في هذا الكتاب من رحم الخيال وإن كانت تمت إلى الواقع بصلة.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

قرآن كريم

« تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش »

حديث شريف

« قال يا رسول الله إنهم لم يعبدوهم فقال بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم »

حديث شريف

إهداء

إلى سيدنا وأبينا إبراهيم، هادم الأصنام بحجّته البيّنة ويمينه

وإلى سيدنا رسول الله ماحي الشرك والهادي إلى سبيل الله ودينه

وإلى كل من حارب الجور والطغيان وسائر الأصنام والأوثان

وإلى أناس عرفتهم بعد موتهم، علموني كيف يصول القلم ويجول

وإلى إخوة عرفوني، نصحوا لي وقوّموني، يعرفهم الله ولو لم أسمّهم

وإلى المجهولين في الأرض المعروفين في السماء

من حطّموا أصنامهم ومضوا إلى ربّهم مخبتين

إليهم جميعاً أهدي هذا العمل

سائلاً الله الرضا والقبول.

أبو المنصور

بين يدي الكتاب

الحمد لله حمداً يحبه مولانا ويرضاه، وصلاة وسلام على نبيّه ومصطفاه، المبعوث رحمة للعالمين، والذي أرسله مولانا العليّ العظيم ليخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن جور الإنسان إلى عدل الرحمن، فأشرقت به الأنوار واستحال الليل بدعوته إلى نهار، وحطم الأصنام وأباد الأوثان وبدد القتام عن عقل الإنسان.

ثم أما بعد، فقد استوقفني مراراً سلوك البشر المتغابي في كثير من الأحيان، حيث تَضل عن العقل الأذهان، فترى الناس فرادى وجماعات، يتغاضون عن أمور منكرات، ويُقبِلون على أخَر مهلِكات، يَحجرون على عقولهم، ويجورون على أنفسهم، ثم يدّعون الرضا والقناعة بكل ضيم وشناعة. ثم بحثت أكثر فأكثر، وأخذت أقلّب في هذه الظاهرة الفكر والنظر، فوجدت فيها خصائص تعمّق تشابهها، وخيطاً – بل حبلاً - يربطها ويجمعها، ورأيتها أشبه ما تكون بالأصنام، بل هي الأصنام بعينها وشحمها وعظمها!

إنّها أصنام اتخذها الإنسان عامداً أو غافلاً لكنه اتخذها ورضي بها، وأسكنها من فؤاده المكان الأعلى، وأحلّها من عقله المقام الأسنى. أصبحت قبلته المقصودة، وغايته المنشودة، وكعبته التي يطوف حولها عمُرَه، وإلهه الذي يطيع في السر والجهر أمرَه، فشيّد لها المعابد، ودعا إليها القائم والقاعد، أو أحبها حب قيس لليلى، فأفنى فيها حياته وأبلى، وفضّلها على الخلق أجمعين، ونسي لأجلها الأقربين والأبعدين.

ثم كثرت هذه الأصنام وانتشرت، وأنبتت كُلّما قيل ماتت وهلكت، فصرت تجد صنماً أكبر وآخر أصغر، وواحداً منبثقاً عن واحد، وصنماً يُسجد له وهو لغيره ساجد، وهنا صنم

من ياقوت وألماس، وهناك صنم من زجاج حسّاس، وصنم شفاف لا يكاد يُرى، وصنم سحر لب كثير ممّن لحربه انبرى. وربما عُبد دون سعي منه أو رغبة وهمّة، ولكنها مكيدة شيطان ولمّة، وافقت هوى ابن آدم فهوى، أو راودت جهله عن رشده فغوى، وحين لم يكتف الناس باللات والعزى ومناة، اتخذوا أصناماً من شتّى الفئات والمسمّيات، عساها تقرّبهم إلى معبودهم خطوة، فيجدون عنده القبول والحظوة.

فلمّا اتضحت عندي الصورة أدركت حجم المصيبة التي نحن فيها واقعون وبين أسنانها عالقون وفي وحولها غارقون، فلا يكاد ينجو منها إنسان، ولو كان من أهل القبلة والإيمان، إلا من مَنّ عليه الرحيم المنّان، ليقيه في الآخرة عذاب النيران. ثم نظرت فوجدت الفلاسفة أدلوا في المسألة بدلوهم، على مذاهبهم وطريقتهم، بكلام عام لا يشفي، وتوصيف يزيد المرض ولا ينفي، ووجدت الدعاة والعلماء أشاروا إلى جوانب من أسباب وأعراض هذا الداء، غير أنّي لم أقف، فيما تيسّر لي، على كتاب أَفرد أصنام العصر بالدراسة أو عالم ملأ في حربها كرّاسه، فسمّيت الله خير معين، وحملتُ ما تيسّر لي من زاد ويقين، واستخرت واستشرت ثم على سطر هذا الكتاب عزمت، ولا أدعي أنّه محيط بالمسألة من كل جانب ولا أنه خال من العيوب والمثالب، ولكنني أرجو أن يُقدِّم إضافة جديدة، وأن يكون وسيلة مفيدة في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإغاثة الغريق وتنبيه الغافل، ولعلّ الله أن ينفع به أقواماً ويهدي آخرين، وينجي به كاتبه والقراء أجمعين، في الدنيا ويوم الدين.

بقي أن أشير إلى ما سيتبيّنه القارئ الكريم حين يسير مع هذا الكتاب، منبهاً إليه مِن قبل خوض العباب، منه أنّ الكاتب ليس بالعالم النحرير ولا الطبيب الخبير، ولكنه ليس كذلك حاطب ليل ولا مسافراً دون دليل، والحمد في ذلك كله لله الكريم الجليل. وكذا

الكتاب فليس كتاب سياسة رغم امتزاجه بها، ولا علم اجتماع رغم إطلاله عليه، ولا فلسفة على ملامسته فضاءها، ولا أدب رغم جريانه بين صفحاته، ولا كتاباً في علوم الدين وإن كان لا يخرج عنها. هو باختصار رفع للغطاء عن شيء من عضال الداء، نحمله معنا إلى القبور، ظاهر حيناً وحيناً متخفّ مستور، لعلنا نتخفف من الأوزار، وتطهر القلوب وتضيء الدار، وتصفو الحياة بعد كدر، ويدنو الفرج والظفَر، وتستيقظ الأمّة بعد سبات، ونجتمع بعد تفرّق وشتات، ويسود العدل من جديد وتعلو راية الدين المجيد.

أما أنت أيها القارئ الكريم، فافتح قلبك وأنر بصيرتك، وخذ قلمك واقتحم معي هذا الكتاب، فما وجدتَه موافقاً للحق فخذ به واثبت عليه، وما وجدته من خلط ولغط فاصفح عنه أو صححه وقومه، ودوّن ملاحظاتك على الهامش والمتن، خاصة إن كنت من أصحاب الخبرة والفن، وادع الله لكاتب هذه السطور بالهداية والغفران والرحمة والإحسان.

أبو المنصور، عبد الرحمن قلاوون

21 كانون الأول 2025 م

الموافق لـ 2 رجب 1447 هـ

الصنم

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

قرآن كريم

تواطأ الناس قديماً على اتخاذ أصنام لهم يعبدونها وإن كانت هذه الأخيرة لم تدْعُهم يوماً إلى عبادتها ولم تدّع ألوهيّة في الأرض ولا في السماء. ثم صنعوا لها صوراً وأسماء وأحكاماً وشرائع، وإن كنت هذه الآلهة بها جاهلة ومنها براء، ولم تشرح قَط لكاهن ديناً ولا ألمحت لمريد بالمراد!

إنّها الرغبة يا سادة، وربما الحاجة، إلى مرجعية تجمع حولها شَعَث الناس وتلم شملهم، وتلزمهم شيئاً من التكاليف المادية والمعنوية. ثم صارت هذه التكاليف ديناً يَحرُم مساسه بسوء، وصار لاسم الصنم رهبة ورغبة وقداسة، وصار له كهنة ورهبان، ومعابد وحجّ وقَسَم به وأيمان.

والناس هُم الناس، ما لم تُصلحهم هداية سماوية أو إرادة دنيوية. فتراهم في زماننا هذا، كأسلافهم بالضبط، اتخذوا أصناماً آلهة، يسبّحون بحمدها ويقدّسونها ويحجون إليها وينافحون عنها، ويطيعون كهنتها ويؤدون إليهم المكوس والقرابين ويذودون عنها وعنهم

بالمال والدم والبنين، فكأن الإنسان القديم لا يزال حاضراً في إنسان اليوم، يطلّ برأسه بين الفينة والفينة باحثاً عن إلهه، فإن لم يجده اتخذ مما يشدّهُ من حوله أصناماً ومعبودات.

غير أنّ أصنام اليوم ليست من الحجارة ولا الخشب، ولا الطين ولا الذهب، وليست من التمر الذي يؤكل، أو الرسم الذي يُنسَّق ويجمَّل، وإنّما هي من شحم ولحم، هيكل وعظم، بعضها أعلى من بعض، وعليه فالبعض الآخر أدنى من بعض، لكنّها تبقى أصناماً بكلّ ما تعنيه الكلمة لمعتقِدها، حتى لو حمل المصحف والتوراة والصليب، أو ادعى نهج سبيل العلم والتجريب.

والأدهى من ذلك كلّه أنّ أصنام هذا العصر لم تتوقف على ما حوته صورة وحَدَّه جسم، بل تغلغلت أعمقَ من ذلك بكثير حتى تجلّت في الخيال والوهم، والفكر والعلم، وسيأتي بيانه بإذن الله.

ومما لا تخطئه عين الباحث اللبيب والناظر الأريب أنّ لهذه الأصنام خصائص تتقاسمها، فتجتمع على بعضها وتنفرد في البعض الآخر، ومنها:

- أنّها جميعها تحظى بالتقديس والتعظيم،
- والمغالاة في المحبّة والتفخيم، حضرت أو غابت، أخطأت أو أصابت،
- وتعليق الخير بها والضرر،
- وتسليمها القياد دون محاسبة ولا حذر،
- وطاعتها طاعة عمياء، ولو كانت آلة صماء بكماء، أو كمَنَ في طاعتها العناء والشقاء.

ويلاحَظ أيضاً أن تأليه هذه الأصنام إنما ينبع أساساً من قلب عبّادها لا من ذاتها، فهي تتملّك خيال الواحد منهم ولبَّه، وجوارحه وكلّه. وقد يقف سلطانها عند حدّه، وقد يتجاوزه لبني جدّه وجلدته، فيتشاركون العبادة والطاعة، ويبرعون في فنون الامتثال أيّما براعة،

ويتفانَون في إظهار الولاء، ويتبارون في اصطياد المعارضين والأعداء. ثم تعمّ البلوى لتشمل المجتمع بأسره فتنشأ لها السطوة والقوة، ويلتمُّ حولَها الخدم والحشم، بخلاف المتسلط غير المتألّه فهذا قد يجثم على رقاب الناس وهم له كارهون ويهتفون باسمه جهاراً وفي سرهم يلعنون، فهذا لا يبلغ درجة الصنم المعبود والإله المقصود إلا بقدر ما يرجوه الناس اتقاء شره واجتلاب خيره ونفعه. وقد يحصل أن يجمع الشرور بيديه ويغوص بالعار والشنار إلى أذنيه، فيتسلّط ويتألّه في آن، ظانّاً نفسه الأول مدى الأزمان، فهذا فرعون حقير، وقرد وخنزير، فلا داعي لسبر أغوار نفسه وسِرّه، وإضاعة الوقت في دحض حقيقة أمره، فضميره علانية وحاشيته زبانية وجوهره فساد وعيشه إفساد، وهو إلى الهلاك صائر، وعلى خطى فرعون موسى سائر.

بقي أن أذكّر بما هو معلوم بالضرورة، أنّ الأصنام المعبودة قد تُعاب في ذاتها أو تمدح، وربما كان بعضها مِن أصلحِنا أَصلَح، وربما كان العيش دونها من المحال، أو يكون إدراك رفعتها ضرباً من الخيال، غير أنّ عبادتها دون الله أو معه شرك وضلال، وليست مسؤولة عن زيغ الإنسان بحال. فانظر إلى عيسى ابن مريم عليه السلام، أو انظر إلى الملائكة الكرام، والنجوم والشمس والقمر، وبعض من سار على الأرض من صالحي البشر، كم من أقوام رفعتهم، وقدستهم وعبدتهم، ولم يكن أحد منهم يوماً داعياً إلى الشرك والكفران أو الجحود والنكران. وسيأتي يوم يقف فيه الجميع أمام الملك الجبار، الذي لا يخفى عليه شيء في جو السماء أو قيعان البحار، وسيُسأل المشرِكون والمشرَك بهم، وينطق بالحق المتهَم والمتهِم، وسينجو المؤمنون الصادقون وإلى جهنّم يمضي المشركون وبئس القرار. نعوذ بالله من مصير أهل النار.

قداسة

جاء في المعجم أنّ التقديس التنزيه والتطهير والتبريك. وقد ذكرت أنّ الناس قديماً أرخَوا على أصنامهم أثواب القداسة، وهو ممّا تواطأ عليه القوم، ومنبعه منهم ومرجعه إليهم، إذ لولاهم لما كان للصنم أيّ قوّة أو قيمة في ذاته، وإنّما قوّته من قوّة الفكرة الحاملة اسمه الداعية إليه والمعظّمة لجنابه الذابّة عن مقامه، ولولا هذه القداسة لتجرّأ على الصنم كلّ صغير وكبير وعظيم وحقير، ولَما بقي له احترام ولا قام باسمه نظام.

ومهما كان سمتُ الصنم أو اسمُه، أو صنفُه أو رسمُه، فإنّما القداسة أوّل أركانه وأساس بنيانه، فهي التي ترفعه في عيون الناس وتزكّيه، وتجمّله وتحلّيه، وترفعه عن كلّ نقيصة وعلّة، وتعصمه من كلّ خطيئة وزلّة. فرأيه على الدوام الرأي السديد الأوحد، ولو خاض في بحر الضلال وأَبعد، وعليه فاتهامُه خيانة، وانتقادُه إجحاف وكفر بالديانة، ووضعُه في ميزان النقد جريمة لا تُغتفر، وقول "لا" في وجهه – أو ظهره – ما مِن عواقبها مَفرّ.

وهو لا يحتاج أن يتكلّم ويشرح، ولا أن يستشير ليُنصح، فالقداسة كفيلة بالتماس الأعذار، والتلميع والانبهار، وهي عنه مُنافحة، وباسمه صادحة، وهي التي تجنِّد له الجنود، وتذلّل الصعاب وتذيب الحدود، إذ أنّ جناب الصنم المقدّس معصوم، لا يجوز أن يُنسب إليه خطأ مذموم، أو ضعف رأي أو هوان، أو رزيّة أو نقصان، فهو الطويل وإن قَصُر، والعظيم وإن ضَمُر، والطليق وإن تلعثم، والمبين وإن أعجم، والعادل وإن ظلم، والمعطي وإن حَرَم.

والأدهى من ذلك كله والأمَرّ، سُنّة عُبّاد الصنم الأغرّ، بزيادة تقديسه كلّما زاد خطؤه، وتزيينه كلّما افتضح عواره وعورته، وإكراه الناس على عبادته كلّما فَجَر، والرضا به مع كلّ

ما ظهَر. فإن لم يكن تقديس الصنم إعماء للعين وطمساً للبصيرة، ومسخ ابن آدم حَملاً في حظيرة، فأيّ شيء إذن يكون، وبم يوصف هذا الاستسلام والركون، وهذه المبالغة في الحبّ والتعلّق، والتذلل والتملّق، ولو في الخطأ الجليّ والعمل الرديّ، ولو أنّ الناس التمسوا لبعضهم من الأعذار، مِن مثل ما يَلتمسون لصنمهم عُشر معشار، لرأيتهم في دعة وأمان، ووئام واطمئنان، ولكنّها قلوب قُهرت فماتت، وبصائر طُمست وحلوم هانت، فإلى الله المشتكى.

عجب!

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعمَل عَمَلاً صَالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحداً﴾

قرآن كريم

عَجَـــبٌ تَفَتَّـــقَ عـــن عَجَـــبْ ... حـــتّى غـــدا الـــرأسُ الذنَـــبْ
غاصَـــــتْ بأوحـــــالِ الجهـــــالَةِ ... بِنـــــــتُ أمجـــــادِ العَـــــرَبْ
خَلَعَـــــــــت رداءَ نَبيِّهـــــــا ... لعقَـــــتْ حـــــذاءَ أبي لَهـــــبْ
صَـــــنَعت بأيـــــديها الهـــــوانَ ... وقَدَّســـــــتـــــهُ بِـــــلا ســـبَبْ
شـــــادت قصـــــورَ بُغاتِهـــــا ... بـــــــــدمائها كي تُحتَلَـــــــبْ
صـــاغت مِـــن الذيـــلِ الذليـــلِ ... خيـــــــالَ ســـــــلطانٍ ورَبّ
مَـــدَحَت مَســـــاوِئَـــهُ الـــتي ... خفيَـــت وأَطنبـــت الخُطَـــبْ
صَـــــلَّت لــــــه بتـــــأدُّبٍ ... خَشـــعت وأَظهـــرت الرَّهَـــبْ
طابـــــت بـــــه نفســـــاً ولـــــو ... هَتَـــكَ المحَـــارِمَ واغتَصَـــبْ

بَذلت له القربان مالاً   في دمٍ حتّى نَضَبْ

مِن ثُمَّ قامت تَصنعُ   الأوثانَ زُلفى عن كَثَبْ

فإذا بكلِّ مَدينةٍ   صنمٌ لمولاهُ انتَسَبْ

وبكلِّ قَلبٍ مَعبَدٌ   رَفَعَ الجميعَ بلا تَعَبْ

ضاقَت بها جَنَباتُهُ   لكنْ خَلاصاً ما أَحَبّ

ويقولُ ربّي اللهُ والـ   ـأفعالُ تَهتِفُ أنْ كَذَبْ

صناعة الأصنام

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾

قرآن كريم

قد يَظن القارئ أنّ القداسة هي وحدها من يَصنع الصنم، أو أنّها حكر على ملوك البشر وأمرائهم، أو قادتهم وعظمائهم، ولكن الأمر في الحقيقة غير ذلك. فأيّ شخص أو فكرة أو شيء يرفعه المرء فوق قدره ويبالغ في حبّه وتعظيم فضله فهو له مقدّس ولو لم يفطن إلى ذلك.

وصناعة الأصنام أمر مثير للاهتمام، فهي واسعة سعة عقول البشر، متعددة السبل كتعدد دروبهم ومشاربهم. ولمّا لم يعد للصنم الحجري الرواج الأكبر وحلّ محلّه البشريّ والماديّ والمعنويّ وما هو مستقلّ بذاته وما هو فرع عن غيره، صار من العسير على الباحثين، إن لم يكن من المحال، حصر طرق ووسائل صناعة الأصنام، غير أنّنا نجدها في كثير من المَواطن عندما ننظر حولنا نظرة فاحص مستريب.

الحاكم المستبدّ مثلاً، يَستعمل فيما يَستعمل سطوتَه وعسكرَه ليتألّه و"يتصنّم"، لكن يبقى سلاحه الأمضى لغرس شخصه في نفوس الناس وسائل الدعاية والإعلام. بينما المال يملك الناس دون سيف ولا بوق وإنما بالشهوة والسوق. والشهوة كذلك قد تملّك العبد دون

سلاح سوى الطمع والتأميل باستباحة ما يباح وما لا يباح، وهكذا في كثير من المجالات والأبواب، حتى أنّك لتجدها حيث لا يُتوقع أن تكون، أي في المساجد والكنائس ومعابد الموحِّدين، إذ قد يبالغ البعض في حب الشيخ أو الراهب، فيسلّم له قياده ويرى النجاة في اتباعه والامتثال لأمره وكلامه دون فهمه أو سؤاله، وأنّ درب النجاة موقوف على خروج المرء عن عقله وإرادته إلى عقل وإرادة المعصوم النقيّ الزكيّ التقيّ، القادر على قهر الشياطين وغلق أبواب الجحيم، واستعجال الأرزاق والاطلاع على الغيب وقراءة الأحداق، وأنّه مُحَدَّث ملهَم وعلى سائر الخليقة مقدَّم، فيقع الناس في الشرك من حيث أرادوا الخلاص، ويَهوون في النار مِن حيث أرادوا النجاة منها، خاصة إن كان هذا المطلوب المقصود محتالاً مختالا، أو جاهلاً يظنّه الناس عالماً عاقلا.

ومن الناس من يتعلّق بالأموات، فيبني حولهم الأساطير والأوهام، والرؤى والأحلام، حتى لو كان بينه وبينهم ألف ألف عام وعام، فلا أدري والله أهؤلاء أضل أم أولئك، وكيف يجد الناس للضلال المسالك!

ومن الأصنام ما تصنعه الشهرة والمال، ومنها ما تتناقله الأجيال دون تمحيص أو سؤال. وقد اجتهدت في اختيار أشهر الأصنام وأخطرها، وجمعتها لبيان حالنا وحالها، ثم احترت في التصنيف، فهو وقْف على زاوية النظر ومدى الظهور والخفاء والأثر، حتى انتهيت إلى البيان التالي، أضعه بين يدي القارئ في جدول، ثم نطّوف على فقراته تطواف زورق في جدول.

أصنام

ظاهرة			**باطنة**
بشرية	**مادية**	**شبه مادية**	النفس
الخارجية	المال	الصورة	الهوى
الوطنية	التقنية الحديثة	الإدمان	الحب
الكهنة	وسائل التواصل	العادات	الخوف
المحلية	ثقافة الاستهلاك	الأكثرية	العلم
		كرة القدم	المعتقد
			الحداثة

الصنم الخارجي الأكبر

هُبل الأكبر، ورأسُ الفراعنة، المتحكم بكل شاردة وواردة، مدبّر الانقلابات وموزّع الزعامات، لا يجرؤ ملِك على مخالفته ولا دولة على معارضته، سمعه حاضر لا يغيب وعينه مطلعة على كل شبر في هذه البسيطة والويل كل الويل لمن تسوّل له نفسه الوقوف بوجهه أو السير عكس إرادته!

أظنك عرفت من المقصود بهذا الوصف، أو أنك متردد محتار؟

إنه هو، أو هي، أو هم... لا يهم، فالصنم مرتفع شامخ في ذهن مولاه حتى لو لم يكن له على الأرض وجود حقيقي، فكيف إذا وجد حقاً!

كثيراً ما نرى الشعوب تعلق مآسيها على العدو الخارجي، أو المتسلط الأجنبي، وتدور الأيام والسنون وتنقلب الأحوال وتدول الدول ويبقى الضعيف ينسب سبب ضعفه إلى "الصنم الأكبر الخارجي"، فهو مؤمن بقوّته وجبروته وآمن في نفس الوقت مكره وغضبه، بخلاف المتسلط المحلي الذي يمكن أن يَنتزع لسانه من حلقه أو يطير رأسه عن جسده إن هو حاول الوقوف بوجهه وإلقاء الملامة عليه.

والأنكى من ذلك أنّ "الصنم الأكبر المحلي" أو من لف لفه وسعى في ركابه يؤمنون في قرارة أنفسهم بـ"صنمية" هذا الخارجي، فما أخزاها وأضلها من أصنام.

وإن نزلنا نطوف في الأسواق ونسأل الناس عن هذا الخارجي ومن يكون، فسنسمع إجابات تتشابه على اختلافها وتتعدد كتعدد أصحابها؛ فقائل هم الأمريكان، وقائل اليهود، وآخر الماسونيون ورابع حكومة الظل، وخامس رئيس المنصة الفلانية، وسادس كبير

العائلة العلانية... وهكذا دواليك، وأصدقك القول أني لن أتعجب إن أتى من يزعم أنها كائنات الفضاء أو سكان العالم السفلي أو إبليس اللعين بعينه.

إن اختلاف الآراء لهذا الحد حول سؤال واحد فهمه جميع من وُجّه إليهم على حقيقته دليل على أنّ هذه الأجوبة كلها خاطئة، لكنها تُعامَل جميعُها، متحدة أو متفرقة، معاملة الصنم الذي تَدين له الرقاب وتسير بأمره الحياة. وما دامت خاطئة فلأي شيء إذن التمسك بها والاستسلام لها كأنها حقيقة صرفة أو قضاء حتمي لا مفر منه؟

انظر إلى التاريخ البعيد ترَ الممالك ظهرت وعلت وبطشت وتحكّمت ثم اضمحلت وزالت. نعم تختلف سرعة زوالها باختلاف الظروف والسياقات لكنها تزول. وهكذا جبابرة هذا العصر، الطارئين على بلادنا وتاريخنا، سيأتي يوم ويرحلون بقضّهم وقضيضهم وعِدّتهم وعتادهم وجبروتهم وسلطانهم. وانظر إن شئت إلى الأمريكان، على سبيل المثال لا الحصر، وقد تسوّدوا العالم في عصرنا هذا، أما تراهم هُزموا في مواطن كفيتنام وأفغانستان؟ وما فيتنام وما أفغانستان بجانب أمريكا وقدراتها؟ قد تجيبني للوهلة الأولى بـ"لا شيء"، لكن الغزاة خرجوا من تلك الديار منكسة رؤوسهم ملطخة سمعتهم، وإن لم تكن يوماً بالنظيفة.

وكم وكم أظهرت لنا الأيام أموراً سارت بعكس ما يشتهيه هؤلاء القوم أو تفرضه أوامرهم، فلا تغوّلت الغول بأكثر مما عودتنا أن تفعل ولا هي استبقت الأحداث ومنعت الأقدار من النفاذ. فعلام تقديسها إذن وصويحباتها؟

أوليس ذلك تبريراً للضعف واستكانة للكسل والخمول؟ أليس هذا استسلاماً دون حاجة وهزيمة دون مواجهة؟ أم أنها العقلانية والحكمة والتجربة التي لا تُطلّ علينا من القصور إلا حين يُراد السكوت على الألم والعض على الجراح؟

لا بد أنك سمعت بقصة المغولي الذي لقي عدداً من المسلمين زمن سقوط الخلافة العباسية، ولم يكن حاملاً سيفه حينها، فاستمهلهم حتى يحضره ثم ينتزع أرواحهم! فماذا فعل القوم؟ مكثوا ينتظرونه غارقين في دموعهم يندبون حظهم حتى جاءهم من عاب عليهم ضعف الحيلة والوسيلة. وأرى المغوليَّ لو درى ذلك منهم لكان قطعهم بأظافره وهو يقهقه ويتندّر ويسخر من خُلُق لا يكاد يُسمع به في بني البشر، لكنها الفِطَر الممسوخة والعقول الصدئة والنفوس المتردية.

ومَثلُ دولنا اليوم كمثل هؤلاء النفر وحالهم مع المغولي؛ استسلام وبكاء واتحاد على الاعتراف بالضعف وانعدام الحيلة وانتظار للسكين الذي سيجز الأعناق، أو يقطع الأرزاق، أو يفرغ الخزائن، أو يستبدل عن العروش كل خائن بمن يَبَزّه في الخيانة ويَسبقه في الضعف والاستكانة.

ومِثلُ دولِنا شعوبُنا، فلولا استسلامنا للظالمين لما تمكنوا وفَجَروا، ولما أتانا من يبالغ في الاستعباد والإذلال، ولما جرّبه، هذا الخارجي، على كل مسؤول فمن فوقه إلى أن يصل إلى رأس الهرم فيفرغ عليه استهزاءه إهانته. وليس العادي الأجنبي بملوم ما دام يجد من راعي الخرفان الذلة والهوان، فمنذ متى يُطالَب الذئب بالرفق بالفريسة أو الرأفة بالراعي وغنمه؟

ليست المشكلة إذن في الأمريكان أو اليهود أو الماسونيين أو سواهم، وإن كانوا جميعاً غارقين في الفساد والإفساد ومسؤولين عن كثير من الخراب وأنهار الدماء، إنما هي بالأساس مشكلة الشعوب مع أنفسها أولاً، ثمّ مع حكامها ثانياً ثم يأتي من بعد ذلك دور الغزاة وطرائقهم وسبل مواجهتهم، والله أعلم وأحكم.

الصنم الوطني الأكبر

حبيب الجماهير ومنقِذُها، هادي الأمة وقائدها، حصنها الحصين وسورها المنيع والسد الأوّل في مواجهة الأشرار وحربهم، واستنقاذ الوطن من أياديهم وطردهم.

له في كل بلد اسم ورسم، دائم الحضور مُدوّيه، بهيّ الطلعة غائظ أعاديه، حكمته هادية، وضربته قاضية، هو مدني وعسكري في آن وإن كان لم يعرف عن الحروب إلا سماعا، وما حاز فيها إلا الأوسمة عطاء لا انتزاعا.

سمّه الرئيس أو الأمير، أو الملك أو المشير، ذلك كله لا يهم إنما المهم أنّه صاحب الكلمة والسلطان، والجند والأعوان، لا يُحَد مُلكه بسنين معدودة، ولا الخزائن إن بددها مفقودة. صوَرُه في كل حي وشارع، ولحديثه الجميع مصغ وسامع، ينادى له في كل كنيسة وجامع، وله الشعب مبايع وخاضع.

صحيح أنّ كلامه خلط محض، وأنه لا يميز بين الرفع والخفض، وأنّ علمه في الإدارة مجذوم، وفي الاقتصاد معدوم، وأنّ القوانينَ عنده لعبة في ورقة، والسجونَ علبة مغلقة، وأنه يُبعد عنه من صدَقه، ويُدني المنافقين والمرتزقة، وأنّه لا يذكر الدين إلا بغية التمكين، وسوى ذلك فميمم نحو المشركين، كل هذا صحيح وزيادة، ولكنه الزعيم المفدّى يا سادة، يجوز له ما لا يجوز لغيره، على مذهب فرعون في بطشه وضيره.

أمّا عن تقديسه وتحكيمه، وتمليكه وترسيمه، فلا داعي للسؤال، والبحث في الخيال، فجناب السلطان ورث المجد كابراً عن كابر، ولو لم يُعرف لنسبه أول ولا آخر، ولا أصل فاخر، أو جاه ضارب ومال وافر. فلقد أتاه الملك راغباً راهبا، وكان عنه مِن قبل بزعمه

عازفاً وراهبا، لكنه أجاب النداء ولبّى، حتى صار به مستهاماً صبّا، فصار خلعه عن العرش من المستحيلات، وتقويم خطئه من المردِيات، والويل كل الويل لمن يقول له دع عنك وهات، ولو في أضغاث المنامات، فهذا مآله التخليد في الظلمات، ليعتبِر به كل مفتئت بهّات.

لكنّ جناب السلطان المعظّم من جنس البشر، وإن كان في جلوسه على رقاب الخلق أشبه بالحجر، فكيف يَستعبِدهم وهو من طينتهم، ويعتريه من الرزايا والنقص ما يعتريهم؟ هنا يا كرام، يأتي دور أزلام النظام، المتعلّقون به تعلّق الغريق بحبل النجاة، المستغلون قربهم منه كالطفيليات، فبقاؤهم ببقائه مرهون، ونفوذهم بسلطانه معجون، فيبالِغون في التقديس والتعظيم، ومطالبة الخلق باتباع التعاليم، كلما كبر الفرعون وشاخ، واشتدّ ضعفه وأناخ، وهم لو ملَك القصر سواه، لانفضوا عنه وتبعوا خلَفه كالشياه.

وانظر يا رعاك الله حولك في البلاد، كم من متسلط نشر فيها الفساد، وعلا وتكبر، وطغى وتجبر، سيان أورث الملك عن أبيه وجده، أم حازه بالتآمر وناله بجده، فالطرق إلى العرش مختلفة، وأخلاق ما قبله عما بعده منصرفة، فإنّ له لرونقاً وسحرا، ونهراً وزجرا، فإن يستقم مِن فوقِه يُغرِ به الطامعين، وإن يَطغ يَستهوِ المنافقين، فليشترِ إذن الحاكم الدنيا بالدين، وليستعبد الخلق أجمعين، ولو أورَثه ذلك اللعنَ اللعين، وسخط ربّ العالمين.

وللحديث بقية...

راعي الغنم

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

قرآن كريم

من ديوان "ما بين الظلمة والنور":

اِرتقـــى المنـــبرَ يومـــاً　　واعظـــاً راعـــي الغـــنَمْ

ثوبُـــهُ فيـــه اتســـاخٌ　　ريحـــهُ تُـــؤذي الأُمَمْ

وبيمنــــاهُ حصــــاةٌ　　وبيُســــراهُ عَـــــلمْ

وعَصــــاةٌ وســــياطٌ　　وكِـــــلابٌ ونَغَـــــمْ

واســــتَهلَّ القـــولَ هـــذياً　　فكــــأنَّ الرِجـــــلَ فَمْ

واســــتكانَ النـاسُ جهـــلاً　　أو رضـــوا خـــوفَ النــدمْ

اِتبعـــــوني يا نِعـــــاجي

واقبَلــــوا مِــــنّي اعوجــــاجي

وأَطيعـــــوا أمــــــرَ تاجي

تـــــأمنوا مُـــــرَّ أُجـــــاجي

وتَعيشـــــــوا كالدجــــاجِ

في حيـــــاةٍ مِـــــن زجـــاجِ

واملــــــؤوا كُلَّ الفِجــــاجِ

ضحـــــوةً أو في الديــــــاجي

وليَقُـــــــمْ كُلٌّ يُنــــــاجي

إنْ تمـــــــنّى العــــــيشَ ناجِ

"عـــــاشَ راعينـــــا الصـــــنمْ   عـــــاشَ راعينـــــا الصـــــنمْ"

الكهنة

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾

قرآن كريم

قد علمت يا رعاك الله أنّ سلطان الصنم قائم على أركان، أهمها اثنان لا غنى له عنهما: ركن العبيد وتقديسهم شخصه، وركن الحاشية واستغلالهم مكانته. وهؤلاء أشبه ما يكونون بكهنة العصور الخالية، حيث كانوا يخاطبون الناس برغبات صنمهم المنحوت من جماد ويأمرون باسمه وينهون ويتلقّون القرابين والأعطيات ويوزعون البركات والترضيات فيما الجماد لم ينله شيء من طعام وشراب أو ثروة ومال.

وقريب منه حال أصنام اليوم، غير أنّ لها رغبات وأوامر ونواهي، ولكهنتها مثل ذلك، وتتفاوت نسب التأثر والتأثير بتفاوت حضور الصنم ونفوذه، ولكنهم في نهاية المطاف يتقاسمون الغنائم ويتشاركون الجرائم.

ولكي يزداد النفوذ وتتسع رقعة الاستفادة، تعددت الكهنة وتقاسمت فيما بينها الأدوار، فصار كاهن للعسكر، وآخر للشُّرَط، وثالث للوزارة والإدارة، ورابع لشؤون القصر، وخامس لشؤون العوام وهلمّ جراً.

وترى كل كاهن متذللاً أمام صنمه الأكبر، يكيل له المديح ليل نهار، ويظهر له الإجلال والإكبار، وإن كان في قلبه مبغضاً له شاتما، وحاسداً ناقما. فالأول رقى العرش على أكتافهم وله الثمرة وعليهم الجهد، وما أسهل أن يستبدل بهم غيرهم إن هبت النار وغضب الشعب وثار. غير أن الكهنة ذاقوا حلاوة النعيم، والقصور والتعظيم، فلن يتخلّوا عنها إرضاء للغرور أو استنكاراً للظلم والجور، فليكن إذن الأمر كما هو وليتسلطوا على من هُم دونهم، وليشكلوا أصناماً أصغر، تأمر وتنهى، تعطي وتمنع، تعاقب وتصفح، تضر وتنفع وكل ذلك مستقى من هيبة الصنم الأكبر وقدسيته وجلال عرشه وشخصيته. بل ربما جاد عليها الحظ بأكثر مما تتمنى، فنالها من الشهرة والدعاية ما يجعل ذكرها سائراً يتغنى، فينفخ في غرورها أكثر فأكثر، ويشجعها على الظهور كلما أقبل الدهر وأدبر، فإن حضر الصنم الأكبر فهي إلى جواره، وإن غاب فهي الناطقة بلسانه.

ومن الكهنة مَن حظه أقل بكثير، لكنه فاز بلقب النائب أو المدير، فلأي شيء لا يتبختر ويتكبر، وهو المدبر لشؤن الجناب الأكبر؟ وعليه فسيَنهى ويأمر في دائرته، وسيحذّر الموظفين مغبّة ثائرته، أمّا الزوار والمراجعون فسيستغلهم، والرشوةَ يُعلّمهم ويعوّدهم، وسيجعل رضاه مطلَبَهم، وقربَه موردهم، فهو يد الصنم التي تعطي وتمنع، وهو الذي مصالحُ الخلق من بابه تنزل وتُرفع، فليكن له مما لفوقه نصيب، من الفخار العجيب، والجاه الأرفع والذكر الأنصع، وإن كان يدري في قرارة نفسه أنه دون القوم بمراحل، وأنه عن منصبه يوماً منتقل وراحل، وأن لا أحد خارج إطاره ناظر لصورته، وأنّ من الحسّاد من يترصد به ويتجهز لوثبته، ولكنها لوثة السلطان تصيب الجميع، وعدواه التي تخترق الحصن المنيع، ولن يكون المديرُ الوضيع، شاذاً عن القاعدة ولا اليقظ في الأمة الراقدة.

هكذا نرى الأصنام تُستنسخ وتُنثر، وتُغذّى وتُكَبّر، وهكذا نرى تقديس الحاكم وتأليهه ينعكس على من حوله ليصيروا أصناماً بحجم أقل، و"صنمية" هؤلاء تنعكس على معاونيهم

ومَن دونهم فتتشكل أصناماً أخرى أصغر حجماً وأقلّ بريقاً، ولكنها أصنام ولو لم تجد إلا أنفُسَها لها عابدة وخاضعة لأمرها ساجدة.

وعندما يُشرق على الخلق يوم يكون فيه الحاكم الأكبر خادماً للناس لا ملكاً عليهم ترى كل هذه الأصنام المحيطة به منكبّة على خدمة الخلائق وحلّ المشاكل وتذليل الصعاب لا على البطش والظلم والنهب والنهش كالكلاب.

جرذانه

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُم إِن كُنتُم مؤمِنين﴾

قرآن كريم

جرذان الصنم، وما أدراك ما جرذان الصنم. تلك التي تتجمّع حوله لتقتات، على البقايا والفتات، مما يقدمه الناس ويُلقونه، من لذيذ الشواء أو ما دونه، أو من درهم أو دينار، غفل عن تناوله الكهنة الكبار، فهذه لا يعنيها من الصنم إلا أنه مصدر للكسب، ومسرح للنهب، لا يهمها اسمه ولا دينه، ولا ما يرفعه أو يشينه، إلا بقدر ما يحقق لها من أرباح، ومن غنائم كل عشيّة وصباح.

ولست أعني هنا رجال الشرطة والعسكر، وإن كان بينهم من يستحق هذا الوصف بل أكثر، وإنما أقصد المتطوعين لنصرته، المتهافتين على حذائه وتُفاله قبل نظرته، المتفانين في إظهار ولائهم، ولو لم يسألهم أحد عن آرائهم. تتفق أخلاقهم مهما تعددت الأوصاف، وتختلف أسماؤهم باختلاف اللهجات والأعراف، ما بين "بلطجي" و"شبيح"، و"عاطل" و"مستريح"، و"أزعر" و"صعلوك"، و"برمان" و"مملوك"، فالعبرة بالمعنى والأثر، وهذا يوضحه النظر، وخبرَه الكثير من البشر. ألا ترى أنهم على اختلاف بلدانهم، وتعدد مشاربهم وأوطانهم، يُسارعون في الفتنة والإفساد، وتهديد الجماعات والآحاد، يبادِرون كلما خرج صوت ناقد، للصنم الأكبر الجاحد، فيسبّون ويشتمون، والتقارير الأمنية يكتبون

ويرسِلون، ويبالغون في الوصف والتهويل، إمعاناً في الأذى والتنكيل، واستظهاراً لمدى إخلاصهم، ودرجة نفعهم ووفائهم. بل إن بعضهم يروق له الأمر والحال، فيشرع في أذية أهل حيّه ذيلُ الأنذال، فيختلق التهم والأحداث، لينتهي هذا في السجن وذاك بين الأجداث، لا لشيء إلا الرغبة في الانتقام، أو الابتزاز لبلوغ المرام.

ويطلق لهم العنان النظام الحاكم، رغم علمه بما يقترفونه من جرائم، لا لأنه لهم محتاج، أو أنهم سيقوّمون منه أو من شعبه الاعوجاج، بل لأنهم يضاعِفون في الناس الخوف والجزع، والرعب والهلع، من معارضة الصنم في سرّهم وجهرهم، ويثبت حضوره معهم في حاراتهم ودورهم. فيا حسرة على الشعب المسكين، ويا لعار الجرذان حملة السكاكين، والمسدسات والبنادق، في الأزقة والحدائق، تحت أعين رجال الأمن وحفظ النظام، المكلّفين بحماية الإنسان والصالح العام، فإذا بهم يَحمون المعتدين ولا يردعون، ويُطلقون لهم العنان ولا يَلجمون، كأنّ الشعبَ صار هو المجرَّم، وقاطعُ الطريق المحترمَ المقدّم.

والأنكى من ذلك والأمرّ، والأدهى والأخطر، أنّ انتقاد الجرذان صار جريمة مُدانة، والدفاعُ عن النفس قمة الخيانة، وصارت حمايةُ الناس مناطقَهم تمرداً واعتداء، ومحاولتهم حفظ ممتلكاتهم تمادياً واجتراء، وغدا أكبر هَمّ المواطن النجاة من القمع، وحفظ لسانه من القطع، وما شاء الصنم فليفعل، وليبِع الأرض أو يبلَع، فقد فاق هَمُّ الناس هَمَّ الأوطان، فيا خسارة بني الإنسان.

وعندما هبّت في بلاد العرب بعض الثورات والقلاقل، خرج هؤلاء يصولون دون رادع وعاقل، واستباحوا الحرمات، وأتلفوا الممتلكات، وأنشبوا أظافرهم والشفرات في رقاب الخلق، وصوبوا نيرانهم والطلقات إليهم دونما حق، وأُخرِج كبارهم من السجون، بأمر الحاكم المأفون، وصارت لهم الحظوة والجاه، والمال والرفاه، فأيَّ شيء ينتظر الشعب المستباح بعد انقلاب الموازين، ومتى يرى العدل الصباح في ديار المسلمين؟

مفتي الصنم

«إنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ على أُمَّتي كلُّ مُنافقٍ عَلِيْمِ اللسان»

حديث شريف

قد علمت طرَفاً من قصّة الصنم الأكبر وشيئاً من أخبار فروعه وأعوانه، وإنني ههنا أقصّ عليك خبر كاهن من كهنته وساحر من كبار سحرته، وربما يكون من أشدهم له إخلاصاً وفي خدمته تفانياً برغم أنه ليس بأقربهم منه منزلة ولا بأكثرهم لديه حظوة، وليس له أزلام ولا ظاهر قوّة، وليس يدخل حَرَم الصنم إلا أن يُدعى، ولا يكاد يُسمع به إلا وقت الضيق والبلوى، ولا ينال من المال إلا ما يقطع لسانه، وما زاد فكاشف عورته وفاضح بهتانه. يُستدعى إلى المَرائي ليرائي، وإلى المنابر ليجاهر، وإلى المفاوز ليُنابِز، وفي المكاره لإلجام كل حاقد وكاره، فيقيل عثار الفُجّار ويحمل عنهم الأوزار، فما أَشبَهه بالخُرقة المهانة، الدنيئة المُدانة، المتشبّعة ذلاً واستكانة!

إنه مفتي الشيطان اللعين، وقد بات يُعرف ومَن لَفّ لفّه برجال الدين، وإن لم يكن بالمستقيم هو ولا بالأمين، وإن كان الدين عنده مطيّة لا غاية أو سوقاً بلا نهاية. وانظر ترَ هذا المحتال الدعيّ، والذي زوراً يُنادى مولانا الوليّ، يحشد الأدلّة والبراهين، مقطّعة موصّلة بالدين، على أنّ طاعة السلطان من طاعة الرحمن، وأنّ رضا الله يُنال بالركوع، والاستسلام والخضوع للحاكم الفرد الأوحد، الذي ليس لماله عدّ ولا لطغيانه حدّ، وأنّ حُبه قربةُ القربات، به ينال المرء أعلى الدرجات، وأنّ نُصحَه مُجرَّم، وانتقادَه مُحرَّم،

وإقلاقَ راحته مستوجب النواح، والخروجَ عن طوعِهِ كفر بواح، حتى لو ظلم وغدَر، وكفر وفَجر، ولو زنى على الملأ ولاط، وأذاق الناس اللهيب والسياط. فصار على وصفهم أهدى المهديين، وفاق الملائكة والنبيين، وقدّموا أمرَه على أمر الله الحكيم الجبّار، كأنّ الملعونَ هو العليمُ ذو الجنة والنار! نعوذ بالله من هذا الهذيان، ومن وساوس الشيطان ودعاة السلطان.

وما من صاحب عقل ودين إلا ويعرف أنّ الله حرّم الظلمَ وكرهه، وحذّر عبدَه منه ونبّهه ونهَره، وأنّ الدين الحقَّ أتى لتحرير العقول والقلوب، وإعتاق الرقاب وإنارة الدروب، وردّ الحقوق إلى أصحابها، ودعا إلى حفظها ذوي الحجا والنهى، وأنّه حرب على الظالمين، ونصير المظلومين، وأنّه نزل ليخرج العباد من عبادة أمثالهم، إلى عبادة الله بارئهم وخالقهم، وأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لا أمير ولا فاسق أو منافق، وأنّ الحق أحقّ أن يُتّبع، وأنّ مَن رضي بغيره هوى ما ارتفع. ثمّ بعد هذا كلّه يأتي مَن لا يحفظ من العلم أكثرَ من كلمتين، ووعاؤه الذي فوق كتفيه لا يَسعُ مع المعنى معنيين، يكرر دون وعي ما عليه يُلقى، أم تراه واعياً راضياً ليهنأ فيشقى؟!

ألا إنّ الفطرة السليمة تلفظه، والطريق القويم يرفضه، والأيامُ لا بدّ مظهرة مِن أمره الذي يخفيه، وأوامر صنمه من المساءلة لا تعفيه، ثم لا بدّ لهذا العيش من آخِر، وبعدُ فالله الخلائقَ حاشر، وسيُسألون عمّا كانوا يفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلَب ينقلبون.

ومن لفّ لفّه

من ديوان "ما بين الظلمة والنور":

عبـــادةُ اللهِ تَكفيـــني وتُحيِيـــني وشِرعـةُ الـحقِّ منهـاجي وتَكـوني
وأُمَّــةُ العــدلِ والإصـلاحِ طـائفتي قـد شـادها المصـطفى مُـوصٍ بتمتـينِ
للهِ أبـــرأُ مِــــن قــــومٍ لحـــاهُمُ لــلأرضِ إنْ لانحنـــاءٍ أو لـــتزيينِ
قـد ادعَـوا نسـبـةً بالعـلم تَجمعهُـمْ ولا يَمِـيزونَ بـينَ الديــنِ والتــينِ
وأنَّـــما الحـــقّ محصـــورٌ بمــنهجهِمْ ولـــو تمـــرّغَ في وهمٍ وتخمـــينِ
دعــوى التمــيُّزِ لا تنفــكُّ تُشبهــا دعـوى اليهـودِ بحقٍّ في فلسـطينِ
فـاقوا النسـاءَ إذا خاضَـت مقـالتُهُمْ في النـاسِ مــا بـين تميـيزٍ وتبيـينِ
كأنّـما اطلعوا في الغيـبِ مِـن زمـنٍ عــلى النــوايا قضــاةً دون تَعيــينِ
هُمْ أهـلُ جُـودٍ وإحسـانٍ ومَكرُمـةٍ للـــرومِ يَلقـــونهُمْ بالـــبشِّ واللـــينِ
أمّــا المســاكينُ مِــن أبنــاءِ مِلّـتهِمْ فقيــدُ رِقٍّ لهــم أو حَــدُّ ســكّينِ
بُــكمٌ إذا الحَــقُّ أوفى عنــد غــيرِهِمُ كــأنّما رايـــةٌ للكفـــرِ في الصـــينِ
وإنْ دَهَــت شِــدّةٌ دهــاءُ إخــوتَهُمْ صَمّـوا المسـامعَ دَسّـوا الـرأسَ في الطـينِ

فـإنْ تنفَّـسَ في أوسـاطِهِمْ غضـبٌ   كانـوا حُـماةَ الحِمـى للتـوّ للحـينِ

أخــزاهُمُ اللهُ مــا أخـزَوا شريعَتَـهُ   وثَبَّـطوا الناسَ عـن نـصرٍ وتمكـينِ

ضَـلّوا عـلى عِلمهِـمْ طُـرّاً إذ اتَّخَـذوا   أوثانَ بيـــنهمُ في خِلعـــةِ الديـــنِ

أدوات المعبد

قد علمتم حال الصنم وكهنته، وحال حاشيته وزبانيته، أفهل أحكي لكم عن الأدوات؟ وما الأدوات إن كان مقتنيها الشيطان، وحاملها عفريت من الجان، وكانت تُصنع في الجحيم، ومزاجها التحريضُ والتسخيم، وإن حُفِظت ففي حوض القذارة والدناءة، وإن استُعملت فمِن أجل التعسّف والإساءة؟

إنها أدوات متعددة الأشكال والأسماء، وتعمل في كلّ الأوقات والأرجاء، ظاهرها مسالم بريء، وباطنها قبيح قميء، يستعملها الصنم الأكبر لتثبيت سلطانه، وترسيخ بنيانه، وتكثير أعوانه، وتأليه إنسانه، وهي طوع بنانه، ثم ترميه لتطاوع من يخلفه في طغيانه.

وهذه الأدوات كثيرة عديدة، لا تتسع لسردها صحيفة أو "جريدة"، لا أطيق لها حصراً فوصفا، ولا تفنيداً فنسفا، ولكنني أكتفي ببيان بعض أسمائها وحقيقته، وبعض مظاهرها ونقيصته، وأترك للقارئ الحاذق الفطن، أن يبحث عن سواها فهو بذلك قمن، فيحذر الوقوع في شراكها، أو أن تتلقّفه أشواكها، وأن يكون لها فريسة سهلةَ المنال، أو يعلق به من درنها شيء بحال.

منها المؤسسة العسكرية بمختلف فروعها، عندما تحيد عن القضية وتحوّر مشروعها، فتنتقل من حفظ الإنسان والأوطان، إلى حفظ الأزلام وراحة السلطان، فتَقهر الشعب وتقتل وتَقمع، وتجور عليه والأمن والخوف تزرع، فيصبح الشرطي غولا، والجيش مَغولا، والضابط صنماً صغيراً كبيرا، والسجن وطناً والمواطن حقيرا.

ومنها التوظيف والتعيين، في مختلف المراكز والدواوين، لكلّ باحث عن الكسب الشريف، والعيش العفيف، فيجوّعون الشعب بالتضييق والبطالة، ويمدون له حبل الوظيفة عندهم

والعمالة، حتى لو كانت وظيفة في أصلها شريفة، أو مهنة نظيفة ظريفة، أو شيئاً مما يَستوجِب صاحب الاختصاص، وعن مثله ليس لها لتنتج أدنى مناص، إلا أنّ الباغي وأعوانه الفجار، يحولونها كلها إلى سوق وهم فيه وحدهم التجار، فيفتحون الأبواب والأجواء، لمن يقدم فروض الطاعة والولاء، ولو كان لا يميز بين الياء والنون، أو الضمّة والسكون، فهذه تفاصيل لا تهم، ما دامت الحاجة تطم، وتدفع الناس إلى المقصلة دفعا، أو تصنع منهم البيادق صنعا، ففي مملكة الصنم الأكبر، إمّا أن تُؤمِّن وإمّا عليك أربعاً يُكَبّر.

وثالثة أختم بها هي أعمق وأقتم، وبلاؤها أشدّ وأعظم، تسبق التربية والتعليم، والقمع والتعتيم، والخمر والأفيون، وكافة أدوات المعبد الملعون، إذ أنّها تحاصِر الناس في كلّ زاوية، وتطاردهم بكل مصيبة وداهية، ألا وهي شبكات التلفزة والإعلام، الناصبة أعلام الحرب على الدوام، نصرة للصنم المعظّم، واجتثاثاً لكل من بأمره يتبرّم، فترى فضاءها يعجّ بالأنباء، عن "استَقبل ووَدّع ونام وقاء"، وتُزيّن أخطاءه وغباءه، وتمدح ظلمه واعتداءه، وتأتي بالمذيع والمذيعة، والسمين والمميعة، ليلقوا على المسامع قاذوراتهم، ويفرغوا في الأذهان منشوراتهم، فلا يحول الحَول على الناس، إلا وفي كل عقل ألف ألف وسواس، ينتصب بين المرء والفهم السديد، ويحجز القلب عن الميل الرشيد، ويبذر الريَب والخوف والشكوك، فيمسي المهموم وفَمُه الطلاسمَ يلوك، وكلّما انتقل من محطة إلى أخرى، وجد كلامها عليه أشدّ وأضرى، ويمسي المتلقي دمية في يد الظالمين، وإن كان يرى الذبح ينتظره رأي العين، ويصبح وأبناؤه له مفارقون، وعن طوعه خارجون ورأيَه مفارقون، فيا لها من أداة ضارية، وضربة قاضية، تحتكِر القولَ والشهادة، وتحرّف كل قضيّة وإفادة، وتمسخ من البشر عقولهم، ليسهل قيادهم ويطول رقودهم، وعلى الذلّ والهوان بقاؤهم وسكوتهم.

دعوى الوطنية

«يا أيُّها الناسُ إنَّ ربَّكُمْ واحِدٌ ألا لا فضلَ لِعربِيٍّ على عَجميٍّ ولا لِعجَميٍّ على عربيٍّ ولا لأحمرَ على أسْودَ ولا لأسودَ على أحمرَ إلّا بالتقوى إنَّ أكرَمَكُمْ عند اللهِ أتقاكم»

حديث شريف

ههنا أداة من أدوات المعبد أفردتها بالذكر عن سواها لما لها من مزية واختلاف، فهي من الحق الذي يراد به الباطل، لا بل من الباطل الذي يُلبس لبوس الحق لينخدع به الناس فيسهل قيادهم وعن المعالي إقعادهم.

إنها دعوى الوطنية، وما أجملها من دعوى إن كانت في سبيل حماية الأرض والعرض أو الارتقاء بالإنسان والحضارة والعمران، بيد أنّ للقصر وقاطنيه فلسفة أخرى لهذا المصطلح وهم الذين يتقنون التلاعب بالألفاظ واختلاق الملهيات حتى يبقى الشعب مشغولاً عنهم وغافلا، وبالحقيقة جاهلا، وعن تحصيل حقوقه متكاسلا.

قلّب النظر أينما شئت في بلاد العرب تجد بقية أدوات المعبد تُخرج هذه الورقة وقت الشدة لتقسّم الناس وتفرّقهم حتى يصل بها الأمر إلى تأليبهم وتحريضهم بعضهم على بعض. فحيناً الوافدون يسرقون خيرات البلد، وحيناً أهل البلد أحق بالعون من اللاجئين، ومرة العمال الأجانب لم يتركوا عملاً للمواطنين، وعلى هذا المنوال تطلّ الوطنية الزائفة برأسها لترمي أسباب الفقر والتخلف على ظهور المقيمين في البلد ممن لا يحملون "بطاقة" الانتماء

إليه ولو كانوا هم وآباؤهم من مواليد هذه الأرض ولا يعرفون سواها، أو كانوا أفضل من كثير من حملة "بطاقة الهوية" في العلم والخلق والدين، ولكنه مذهب فرعون في الحكم بجعله الناس شيعاً يختلفون ويقتتلون.

ثم تكشف هذه الدعوى الزائفة عن وجهها القبيح عندما يشتد الكرب ويستوجب عملاً تجاه قضية من قضايا الأمة الإسلامية أو المنطقة العربية فيتهربون ويتنصلون، حكاماً ومحكومين، بحجة أوهى من خيوط العنكبوت ويحاولون مع ذلك ستر عوراتهم بها فيرفعون عقيرتهم بـ"ليست قضيتي" و"عاصمتي قضيتي" و"أرضي قضيتي" وما شاكلها من شعارات الغباء بل التغابي.

هل يفكر الواحد منهم ولو للحظة برفع شعار مثل هذا عندما تشب النار خلف باب داره، أو مدخل بنايته أو الشارع المقيم فيه؟ حتى أغبى الأغبياء يدرك أن النار التي تلتهم جاره ستطاله طال الوقت أم قصر، وأن لا سبيل لرد لظاها ودفع أذاها سوى بوأدها في مهدها ولو كلّف ذلك بذل المال والمتاع وتعريض البدن للأذى وإلقاء الروح بين كفّي الخطر والردى.

بلى، يدركون ذلك جميعاً ولكنهم يتلطّون خلف هذه الشعارات ليُسكتوا ضمائرهم ويريحوا نفوسهم ويبرروا نكوصهم عن نصرة الحق وأهله بدعوى الوطنية الزائفة، هذه الدعوى التي محاها رسول الإسلام قبل قرون طويلة من أرض العرب وقبائلهم ليكونوا ومَن حولهم من الشعوب على قلب رجل واحد، بيد أن اجتماع الناس على كلمة سواء يعني نهاية الظالمين فيختار هؤلاء إبقاءنا مشغولين مشرذمين حتى نغفل ثم نهلك أجمعين.

الأصنام الصغرى

ها نحن ذا نصل إلى ختام الحديث عن الأصنام البشرية، وإنما أقصد بالختام ما ضمّنته هذا الكتاب، وإلا فإنّ الباب مفتوح ما دام الإنسان يَركب عقله ويحكّم غباءه.

وقد يصحّ وصف هذه الأصنام أو حال أربابها بالمضحك المبكي. إذ أنّ هؤلاء أناس يعيشون بيننا، شاءت الأقدار أن يكون لهم منصب أو تقدير ما، فتاهوا به وطاروا إلى الفضاء، وظنوا أنهم دانَوا الملوك أو جاوزوهم، وطاولوا السحاب أو تخطوه! والأنكى من ذلك أنّ من يحيط بهم من بني البشر معززوهم ومكرّموهم ولو كان هؤلاء الصغار أقلّ منهم عقلاً وأفقر تجربة وأضعف رأياً وحكمة.

منهم من أشرت إليه آنفاً من ضباط الجيش والشرطة الذين ينتفخون بأرياشهم كذكَر الطاووس ويرفعون أكتافَهم كالقوس المعكوفة، ويتسلّطون على مَن دونهم من الجند ويتكبّرون، وعلى عموم الناس ويتمردون، ويحكمون ويجورون، ويبتنون القصور ويُعلون السور، ويُلزمون الناس إظهار الاحترام، بل التعظيم والانهزام، كأنّ الواحد منهم قد دحر التتار، أو فرّق الجيوش بسيفه البتّار.

ومثلهم عدد مِن شيوخ القبائل ونواب الجهات ورؤساء العصابات، فهؤلاء لم يَزرعهم السلطان بالضرورة ليكونوا أذرعه وعيونه، وإن كان كثيراً ما يحوّلهم لجهته ويستغلهم لصالحه، وقد يكونون ممن يعارضونه سراً أو علانية، وليس ينفي هذا عنهم صفة "التصنم" أو "الصنمية" – إذا قبل منّا أهل اللغة هذا اللفظ – إذ كانوا يشاركونه الصفات الذميمة والعادات القديمة في التسلط على رقاب العباد ونشر الظلم والإفساد.

ومثل حال الناس مع ملوكهم حالهم مع صغير أصنامهم، فإنهم عندما يلجؤون لإعطاء رؤوسهم أقداراً مضاعفة وينفون عنهم التهم والريب ويلتمسون لهم أعقد الأعذار وأبعدها، أو يرضون بالخطأ منهم والانحراف لأنهم هم هم ليس إلا، ثم يمشون في ركابهم ويبالغون في محبتهم والدفاع عنهم، فإنهم إنما يتخذونهم في الواقع آلهة أو يكادون، أمرهم عندهم مطاع ومخالفتهم حرام ولو برأي منقول أو نصح معقول.

ثم ترى هذه الأصنام الصغيرة تُعجب بالدور فتتقمصه، فيصبح لها فتوّة وحرّاس ومواكب، وتفرّخ لها مراكز تمثّلها ومكاتب، وتنتشر صورها في كل حيّ وزقاق، ويكثر لها التملّق والنفاق، حتى لتخال أنّ واحدها حرر المسجد الأقصى، وحاز من المكارم ما لا يُعدّ ويحصى، أو أنه سلطان السلاطين، والركن المتين، يزول الملوك ولا يزول، وتدول الدول وهو متربّع في سؤدده عن عرش منزلته لا يحول.

ثم يَتعدّى الأمرُ حدّه، ويَنقلب الأصل إلى ضده، فترى مَن كان يفترض به تمثيل الناس والتحدث باسمهم، وجمع شملهم وكلمتهم وتحقيق مصالحهم، تراه وقد مَدّ يد الشر والأذية إلى قومه، فهو يأخذ إتاوة من هنا ورشوة من هناك، ويحمي هذا المفسِد ويؤوي ذلك المجرم، ويضيّق على فلان وفلان، ويتدخل لتعيين زيد في وظيفة أو حرمانه عَمراً إياها، حتى أنّ بعضهم ليتدخّل في الزيجات وقضايا العائلات، ويحكم بهوى منحرف جائر تبعاً لمن يحقق له المصالح كأنه في السوق التاجر، فينقسم الناس في شأنه ويختلفون في حبه وبغضه، واتباعه ومخالفته، ونصرته أو نصرة خصمه وندّه، فتشتعل الحرب ويعمّ الخصام، وتغيب الأخوّة والوئام، ويزداد جناب الصنم الأصغر تكبّراً ونفوذا، ويصبح الكافر به محروماً منبوذا.

ولا بدّ أنّ النظارة الفهامة يعلم حقّ العلم أنّ أمّة تأبى الظلم وترفضه وتحيي العدل وتنشُده تمتنع عن تنمية هذه الطفيليات الاجتماعية كما تمتنع عن الانقياد للصنم الكبير وتمجيدِه ولو

حكم بالحديد والنار وعلى كافة الأصقاع بجيشه استولى وأغار. أمّا الأمّة المهزومة في روحها المتخلّية عن مبادئها المضيّعة دَورها ودررها فما أسهل أن يتحكّم بها الطواغيت الكبار وتفرخ من أمثالهم الكثير من الصغار، وما بين هذه الأصنام وتلك تضيع البلاد ويتيه العباد وينحدر السواد إلى مستوى الجماد حتى يأتي يوم يعود فيه الناس إلى رشدهم ويرمون عنهم إصرهم والأغلال التي حملوها والأصنام التي صنعوها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أصنام مستترة

«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ الشرك الخفيّ»

حديث شريف

أنتقل بكم الآن إلى الأصنام المستترة، بأقسامها التي بينتها في الجدول أول الكتاب. ولا يخفى عليكم أنّ أخطر ما في هذه الأصنام خفاؤها، فيدنو المرء منها دون أن يلقي لها بالاً ويعلق في شراكها فيهلك وهو لا يدري.

هذه الأصنام متعددة بتعدد آفاق النفس الإنسانية واختلاف تفاعلاتها. هذه النفس التي تجعل من التسلية ضرورة حياتية، وأذى النفس تحدياً ومغامرة، والطعام الصحي شيئاً ثانوياً، وبِرّ الوالدين ترفاً، وحفظ النسب خيالاً، ودفع الظلم جنوناً...

إن هذه النفس التي تقلب الحقّ باطلاً والباطل حقاً لن يصعب عليها أن تتخذ الهوى إلهاً والمال معبوداً والرغائب أرباباً ثم تعبدها جميعاً أو أشتاتاً دون أن تعترف حتى بعبادتها إياها! من هنا وجب التنبيه إليها والتحذير من خطرها، ولا أستثني نفسي فما من نفس طاهرة مطهرة زكية نقية لا يخشى عليها الوقوع في براثن هكذا أصنام، اللهم إلا نفوس الأنبياء وقد انقضى زمانهم. فواجب علينا من بعدهم التحصن وأخذ الحيطة والتعاون والاجتهاد في دفع الخطر، خاصة عندما تكون هذه المعنية لصيقة بالنفس والحياة وتكون مما يصعب الاستغناء عنه أو استبداله فالحكمة الحكمة والحذر الحذر.

زعموا أنّ صنماً ملّ حياة الجمود والثبات، وقِلّة الروّاد والهِبات، فشكا حاله إلى أقرانه، وحاول هباء استشارة كهّانه، فاتجه بكلّه إلى الأصنام الأكبر قدرا، والأعظم مبنى وذخرا، وبثّهم ما في ضميره فنهروه وسخروا، وضحكوا منه وزجروا، وقالوا إياك والتبرّم والضجر، فإنما وُجدنا لإضلال البشر، وهذا غاية المقصود، وإن لم تكن في أعينهم أوّل معبود.

غير أنّ الصنم المتواضع، عاد من عندهم غير راض ولا قانع، ورفع شكواه إلى اللعين إبليس، لعله يجد له الحلّ النفيس، والمخرَج من هذا الهم، بعد طول العناء والغم. فرحّب به المطرود أيّما ترحاب، وأصغى لشكواه وله فوراً استجاب، وقال سأصدقك النصح وأنا المحتال الكذّاب، مَن أوجد للتضليل ألف سبيل وباب، وإني لدالّك على خير الوسائل، وأجودها لمن أراد أن يصبح الفاتن الطائل، وهي وسيلة مجرَّبة معتَمدة، عند الجِنة ثمارها مؤكّدة، إن أردت التحرر والانعتاق، والسعي في الأرض والانطلاق، فعليك بالتخلص من جسمك المادي، والانتقال بكلّك إلى العالم السفلي، فتصبح روحاً لا جسد، وفكرة تتغلغل في النفس فتُعتَمد.

وأخذ الصنم بنصيحة إبليس اللعين، فبلغ بها ما لم يَحلم به من التمكين، وصال في النفوس وجال، وملك آمال النساء والرجال، وتضخّم حتى علا على أسلافه المادية، وتبختر عليهم بما وصل إليه من الرزية، ومضى بين الأصنام يجول، ويغنّي ويقول:

أنا المحطــــوطُ مِـــــن قَـــــدري   أنـــــا المـــــــدفــــونُ في السرِّ

أنــا الصــنمُ الذي اســـــتَخفيــتُ   مُنطلِقـــــــــاً مِـــــــــن الأَسرِ

أراودُ كُـــــــلَّ إنســـــــــــانٍ   بـأَلـــــفِ وســـــــيـــلةٍ تُغــــري

فـــــــأملِكُ لُبَّـــــــهُ أُلقـــــــي   عليـــــــه بلهفـــــــةٍ أَمـــــــري

فيَســــــــمعَ دونَ أنْ يُصـــــــغي ويــــــرخص غـــــاليَ القـــــدرِ
ويَركـــــعَ ســــــاعياً نَحـــــوي ويَعبــــــــدني ولا يَـــــــدري
فـــــأعلوا بـــــينَ أقـــــراني ويَحســــــــدني ذَوو الفَخـــــــرِ
وأَعظـــــــم كلّـــــــما يَربـــــــو لهـــــاثُ النـــــاسِ في إثـــــري
وأَقـــــوى كلّـــــما ضَـــــعفوا أو انشــــغلوا عــــن القـــــبرِ
فأَغـــــــــــدو كلُّ هَمّهـــــــــــم وقِبلَـــــتَهم مـــــدى العُمْـــــرِ

المال

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ المال حُبًّا جَمًّا﴾

قرآن كريم

المال وما أدراك ما المال، السيّد في النزال والمحرّك للرجال. لأجله تَشتعل الحروب وتخمد، وبه تستيقظ الفتن وترقد. الآمر الناهي من الصين إلى الأرجنتين وعلى ما بين القطبين من دول التحضر والتخلف والتبعية والتصرف دون منازع يُذكر أو مقارع يَقهر. كم مِن أمين لأجله سَرق، وآخر لنقصه غَصّ واختنق، وكم شريف محى لأجله ذكره من سجل الأشراف، وكم حقير تسوّد به دونما إنصاف، وكم سالت لأجله دماء معصومة، وباتت بسببه ناحبة أمّ مكلومة، وهو فوق كل جرائمه مرغوب مطلوب ومقدّس محبوب.

كيف لا وكلّنا يصبو إليه غاب أو حضر، ويقلق إن قَلّ ويقلق إن كثر. ومّن مِنّا لا يهتمّ لشأنه ولا ينزل من عينه، ولا يغيب يوماً بل ساعة عن فكره ولا يطرب لذكره، أو يغتم!

يطلبه الغنيّ والفقير، ويُسَرّ به الشريف والحقير، ويسعى خلفه المتسوّل والوزير. شاهد على الهبوط والصعود، وحاضر في التداول والعقود، والمتاع والنقود، والكلام والأحلام، والخصام والوئام.

بلى، هناك من الناس من لا يَهتمّ لأمره أو يَكترث، ولا يَلتفت إليه طهُر أو خبث، ليس لثروة حازها فهو عنه في غنى، أو لعِلم بلَغه يكفيه جمعَه والعَنا، ولا لتقى وورع، أو لزهد وشبع. فهل عرفتموهم؟

إنهم الأصفياء الأنقياء، المحِبّون الأبرياء، الذين لم يملك المال قلوبهم، ولا عرف الهمّ طريقهم، رزقهم مكفول وهم عنه ذهول، وصوتهم مسموع والعتب عنهم مرفوع. إنهم الأطفال الصغار ذوو الفطرة السليمة، والنوايا المستقيمة، لم تلوّثهم الحياة وإن سحَرتهم، ولم تفسدهم التجارب وإن أفادتهم، وهم على هذا العهد حتى حين، يَسعون آمنين مطمئنين، حتى يبلغوا الرشد ويغريهم الأمل، ويتملّك المال قلوبهم على مهل.

أمّا بقية الناس، فهم منه بحسب حالهم أجناس، منهم المعتمِد على الله المقتصد، المسخِّر للمال وبإنفاقه يجتهد، وهؤلاء من الأقلّ القليل، والدهر بمثلهم شحيح بخيل، ومَن مثلُهم تُرجى له النجاة في دَيدنه، وقد يؤتى الحذِر من مأمنه، فلا يجدر به أن يُلقي اليقظة عن كاهله، أو أن يركن لغائله، فهو على خطر ما دام حيا، ولو كان بينهما ما بين الثرى والثريا.

ومنهم المؤمن بأنّ الأرزاق على الله، وأنّ ما كتِب له آتيه كان مجتهداً أم لاه، ولكنّه على ذلك يهتمّ لأمره ويغتم، ويتخبّط لفقده ويتألّم. وإن حلّ في يده وسُئل الإنفاق، تراه جال ببصره الآفاق، باحثاً عن سبيل للفرار، أو عذر أشبه بالاضطرار، خشية فقدان ما قد نال، أو أن يحيف عليه السائل بالسؤال، فهذا لقلبه تعلّق بالصنم المستور، ولو خالف مطويُّه ما بلسانه منشور.

ومنهم مَن جعل المال همّاً من أعظم الهموم، يشغله في اليقظة والنوم، لا يغفل عنه ولو ساعة، ويضع بين يديه جهده والاستطاعة، فهو مقصودُه ومعبودُه، ومرادُه ومنشودُه، إلّا أنه تَرك لضميره شعرة يَتلطّى خلفها، يُواري سوأةَ نفسِه وضعفها، لكي لا يقال هذا عبد المال وخادمه، وإنما طالبه ومنادمه، فهو يُشاهد الصنم ويراه، ويُقبّله وبالأحضان يتلقاه، وينظّفه ويرعاه، ويعطيه لبّه ومرآه، وكل ما يتمنى مولاه، اللهم إلّا الركوعَ الظاهر للعيان، والسجودَ والغشّ في الميزان، ليس امتثالاً للشرع والإيمان، وإنما خشية سيف السلطان، وأن تطاله يد القانون إن بغى، أو ترجمه ألسنة الناس إن جار أو طغى.

وآخرهم عبد للمال على المكشوف، يستسهل لأجله مقارعة الحتوف، يؤدّي له فروض الولاء والطاعة، ويَستبسل في إرضائه بكلّ بسالة وشجاعة. دائم السعي لسكبه، بعرق جبينه أو بقنصه وسلبه، لا فرق أمِن الحلال أم من الحرام، أو وافق أم خالف النظام، فكلّ الوسائل عنده مشروعة، والسبل إلى صنمه معبّدة مذروعة، إذ عنده كلّ صعب يهون، وترخص النفس وماء العيون، لأجل الدرهم والدينار، والمؤسسة والعقار، والسيارة والدار، وحساب المصرف والاستثمار، حتى لو كدّ مثل الحمار، وأفنى عمره في اقتحام الأخطار، واجتراح المعاصي والآثام، والعيش بين اللئام، والموت مثل الهوام. فهذا مثال واضح فاقع، لعبد لصنمه ساجد راكع، محِبّ وفيّ مطيع خاضع. وهو وإن كان لم يضع له على الأرض جبهته، أو أحنى أمامه هامته، فإنّ نفسه له ساجدة، وروحه له عابدة، ولو أقسم أهلوه اليمين، على أنه كان من الموحدين، والله أعلم بقلوب عباده وما تحويه، تبديه كانت أم تخفيه. نعوذ بالله من شر هذا الصنم وشر الأقران، ومن سوء المنقلب ومن لظى النيران.

النملة والمال

زعموا أنّ نملة تطلّعت يوماً إلى المراقي، وتلألأت لبلوغها منها المآقي، وقالت لنفسها ألا إنّ عمري لقصير، وجدّي فيه كثير وزادي يسير، وليس إلا برهة فأموت، ويطويني النسيان والسكوت، فإمّا أحوز الشرف الأعلى، فيذكرني من كان للمجد حائزاً وأهلا، وإمّا أموت مطمئنة سعيدة، وسيدة في قومي مجيدة. فآلت على نفسها أن تسعى بجِد ونشاط، لتترقى في البلاط، وتجمع ما تستطيع من المال، أمِن الحرام كان أم من الحلال، متشبّهة في سعيها بالإنسان، مستسلمة لمكائد الشيطان، فالبشر لولا جمعهم المال بزعمها لما ارتقوا، ولما أحلى الركائب والثياب انتقوا، ولا أعلوا ناطحات السحاب، وسخّروا لخدمتهم كلّ ذي ظفر وناب، فإن أردت يا نملة عيشة بني آدم، فابذلي في جمع المال الروح والدم!

وهكذا كان، فراحت النملة تبحث عن الفضة والذهب والألماس، مفنية في ذلك أغلى الأنفاس، ولم يكن الأمر سهلاً يسيرا، بل شائكاً ومهلِكاً وخطيرا. ففي الأسبوع الأول لم تجد إلا مزقة من ورقة العشرة دراهم، فاعتبرتها بشارة انتهاء الهزائم، ثم مَرّ أسبوع وأسبوعان، ولا شيء عندها في الميزان، ولا يزال حُلم الحجر الأصفر يداعبها، وأمل الحظوة ورغد العيش يرافقها، فأفنت في غايتها وقتها وجهدها، وعمرها ورمقها، حتى لم يبق فيها من الروح إلا نفخة يسيرة، ومن الطاقة إلا لمحة قصيرة، فأدركت أنها هالكة لا محالة، واحتارت أترضى أم تندم لهذه الحالة.

وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة وتلقي عصا الترحال عن هذه المسيرة، بلغ ملكة النمل حدوث خلل كبير وتدهور خطير، في الجانب الموكل إلى طالبة المال والتشبّه بالرجال، فأرسلت تستدعيها للمساءلة وللعقاب إن كانت عن مهمتها غافلة، فأدركها الحرس وهي

في النزع الأخير لا تحسن الكلام ولا التصوير، وساءلوها فلم تجب عن سرّ نقص المخزون من الحبوب وعن الاستهتار في الحراسة وكثرة التغيّب والهروب، وفارقتهم بوجه أسود من قشرتها ومن ظلمة غرفتها، فلا هي جلبت لنفسها الهناء ولا لقومها الأمن والرخاء، ولا دفعت عنها وعنهم البلاء ولا حذّرتهم مغبّة التشبّه بالأشقياء.

وعاد وفد النمل إلى ملكتهم حائرين، وبما لا يفهمونه محمّلين، مزق من أوراق نقد بشرية، لا تصلح للأكل ولا لحماية الخلية، فتأمّلتها هنيهة وقالت: ضعوا يا أبنائي نصب أعينكم، حقيقتكم وغاية وجودكم، واجعلوا همّكم فيما يفيدكم، ولا تتشبهوا بمن ليس من جنسكم، وضعوا رزقكم في أياديكم وجنّبوه شغاف قلوبكم، فإنّ عبد المال متعب وهالك، ولو ازينت له الدروب والمسالك، ولكم في حال أختكم عبرة ونظر، فاتعظوا وافهموا الخبر.

التقنية الحديثة

زعموا أنّ صنماً قديماً شوهد وهو يبكي، فاستوقفه بعض أصحابه من الذين علاهم الغبار وأكل الدهر عليهم وشرب مستفهمين مستفسرين وعن حاله مطمئنين. فأمسك دموعه بعد جهد جهيد وتمالك أنفاسه في وقت مديد، وشرع يشرح لهم ما أَهمّه وأضناه، وأعياه وأبكاه، شاكراً لهم وقوفهم واهتمامهم، وعطفهم وسؤالهم. وكان مما قال:

لقد علمتم يا رفاق ما كنا فيه من النعيم، وعليه من التقديس والتعظيم، حتى أتى أمر الله بخاتم رسله فكانت القاضية، ولم يبق صنم على ساق أو سارية، إلا ما كان في القرى النائية أو المدن المستعصية، فرضينا الهزيمة وانحسرنا، وبما تبقى لنا رضينا وقبلنا.

لكنّ ما أهمّني وأبكاني، وآلمني وأشجاني، ظهور هذه الأصنام الجديدة، التي لا طعم لها ولا رائحة، غير أنّ سوقنا كاسدة وسوقها رابحة. الناس عليها مقبلون، بها مفتونون مسحورون، ترى واحدهم يلهث وراءها كالمجنون، وينفق لأجلها ماله ولو جاع لديه البنات والبنون، وما هي بمنحوتات ولا رسومات، ولا كهنتها من أصحاب الطلاسم والهلوسات، بل من أصحاب المتاجر والعملات، والدراسات والخوارزميات، ولا أكاد أعرف عن كثير من هذه الكلمات، إلا ما يقال في الشارع ويعرض على الشاشات.

بعضها أكبر من الدابة الجرارة، كالمسمّات "تيسلا" السيّارة، ولها أخوات غربيات، يوصفن بالذكيات. وهي دواب بلا سائس ولا سائق، راكبها كأنه نزيل أفخر الفنادق، تقود نفسها بنفسها، وتجهّز غده من أمسها، وتخدمه كلما أنفق فيها ماله، وأضاع فيها رشاده وآله.

وبعضها صغير كالكف، زجاجة فيها من العفاريت ألف ألف، يسمّونها الهاتف المحمول،

يمسكونه بالعرض وبالطول، يضعون فيه أموالهم وآمالهم، وأحوالهم وأحلامهم، ينظرون إليه ليل نهار، بغير ما حاجة ولا اضطرار، يُرهِق عيونَهم، ويُدمي قلوبَهم، يُضحكهم بلا سبب، ويُغضبهم إذا نضب، يزيّنونه وينظفونه، ويتباهون به ويعظّمونه. منهم مَن يُلوّن جِلده وإهابه، ومنهم من يُذهّب إطاره وحجابه، وإن مضى عليه شيء من الدهر، عدّوه الطويل من العمر، فرموا به خلف ظهورهم، وسارعوا في طلب الجديد إلى دورهم، فبالله عليكم كيف من هذه الأصنام لا أغار، بل كيف من رميها بعد عشقها لا أحتار؟

ومنها الجديد من الآلات، متعددة المهارات والاستعمالات، بعضها يطبخ ويطهو، والآخر به المرء يلهو، وواحد يكنس ويمسح، وثان يسرح ويمرح، ومنها ما يحمل حول المعصم، أو في الأذن يُدس ويحكَم، ومنها ما يقوم مقام الطبيب، يسلمونه رقابهم كأنه الحاذق اللبيب.

والأدهى من ذلك والأمرّ، ذلك الخفيّ الصغير الأكبر، الابتكار الحديث، والذي أمسى موضوعَ كُلّ حديث، يُسمّونه الذكاء الاصطناعي، فصار البشر نياماً وصنمهم هو الواعي، يسألونه ماذا يأكلون، ويلبسون ويشربون، يدير لهم أعمالهم، ويبثّونه أسرارهم، يُسلّمونه أمرهم كلّه، ولا يخفون عنه دقه أو جلّه، ويصدّقونه دون تمحيص، ولو بدا منه الخلط والتخبيص.

هذا يا أصحاب، شيء من العجب العجاب، من حال أصنام اليوم، التي أفردها باهتمامهم القوم، فكيف منها لا أغار، وعلى نفسي لا أخشى الانهيار؟

هنا وقف أصحابه مشدوهين مدهوشين، لا يجدون وصفا، ولا يجيدون صرفا، وقالوا إن كان الأمر كذلك، فليس ابن آدم وحده الهالك، فإنّ أصنام اليوم تربّعت عرش الأوثان، ونحن ستمحونا كفّ النسيان، فهلمّوا نَبكي ونُبكي الجميع، على حالنا الفظيع ومآلنا المريع، وأن لم يعد لنا في إضلال الناس، في هذا الزمن دور ولا باس.

وسائل التواصل

آفة من آفات العصر الحديث، باتت مدار الكلام والحديث، طوت الشرق على الغرب، وأبعدت الأهل وأدنت الصحب، وكلّ مَن هبّ ودَبّ، ولو كان في شخصه من المجاهيل، أو كان حاسوباً مُعَدّاً لأجل القال والقيل.

أداة كان لها هدف فصارت ذات أهداف عديدة، ومرام بعيدة، وسوقاً بها الناس يباعون ويُشترون، لمن لا يعلمه المتصفح ولا تراه العيون. وصارت لها أسماء ودواوين، ورموز وقوانين، ومداخل وطقوس، وإطالة تَصفّح وجلوس. وصار لها روّاد ومؤثّرون، ومحظوظون ومشهورون، يقولون فيُسمع لهم ويُصدَّقون، ويُصوّرون فيتهافت على تسجيلاتهم المتابِعون، ومنهم من يفني عمره وماله دون جدوى، وآخرون يجنون الثروات من مشاركة صور الطعام والحلوى. ومنهم من يَعرِض حياته وشؤونه، وعمله وداره وفنونه، ويكشف للناس المستور، أو يشغلهم عن اللب بالقشور، ويَنشر هؤلاء وهؤلاء، كلّ غَثّ ورَثّ وهباء، ويُحمَلون على محمل الجدّ والتصديق، ولو كان ما يعرضونه محض ادعاء وتلفيق، فتخالهم من ذوي الحكمة والدراية، والعلم والرواية، وإن كانوا مجرّد أفّاكين، أو حاطبي ليلٍ محنّكين، أو شياطين انفكّت من سلسلة، وليس بين ما تعرضه وحقيقتها أدنى صلة.

وتجد في مقابل العرض الطلب، وما يبحث عنه المتلقي عن كثب، فترى المرء يمضي الساعات الطوال، يقفز من صورة لمرئية فمقال، كأنه في تنقّله فراشة أو نحلة، وفي جِدّه والتزامه عصفور أو نملة، فلا يكلّ التصفّح ولا يملّ، ولا يرفع رأسه عن جهاز له ذلّ. فصنمه هذا ساحر أخّاذ، أقوى بمرّات ومرّات من الحجارة والفولاذ، يطالبه بالمزيد من

الوقت فيستجيب، وحاشى ظنه بعبده يخيب، وإذا أَغرى بالتعليق أسرَع، أو بإبداء الإعجاب بالغ وأَبدَع، وقد يأمره بوضع صورة هنا أو حكمة هناك، أو نكتة طريفة وخبر يُلاك. وقد يوحي له ببث همومه، أو تفريغ عجائبه وسمومه، وقد يأمره بشتم فلان وعلّان، والنظر في هذه الدعاية وذلك الإعلان، فلا يقول لصنمه قَطّ كلّا، ولا يبدو كالّاً ولا يُبدي له غِلّا، فكيف لا تكون هذه الوسائل أصناماً معبودة، وآلهة مقصودة، وهي تفعل بعبيدها فعلتها، وتبلغ منها غايتها، والبشر خلفها لاهثون، وعن خطرها غافلون؟

وإذا حذّرتَ واحدهم منها غضب واستشاط، ودافع عنها دفاع الجند عن البلاط، كأنها صاحبة المنّ والفضل، أو أنها الدين وعنها الناصح تاه وضل، وتراه يسرد الحجج والبراهين، خالطاً الغثّ بالسمين، ليقنعك أنّ وسائل التواصل بَركة إلهية، وأداة مثالية، تقرّب الناس بعضهم من بعض، وتفتّح عقولهم بالطول وبالعرض، وأنّها خير ما توصّل إليه الإنسان، ليعرف نفسه وأخاه بالمجان، دون حاجة لبذل الأثمان، أو وجود رقابة وسلطان، وإن كان يكفي الباحث الحاذق، قليل تدقيق بما هو قائم وسابق، أو محاولة سبر الأغوار، والسباحة عكس التيار، ليعرف مدى ما فيها من الحرية، والفطرة السوية، ومدى براءة نواياها، ومجانية غرفها وزواياها، أما من أغضى طرفه عن الحقيقة، وأبى إلّا أن يُهمِل التفاصيل الجليّة والدقيقة، وأن يُسلّم هاتفه قياده، ويَكِلَ إلى حسابِه حسابَه، فانفُض منه يديك، وانصرف عنه إليك، فإنه مع صنمه كأبي بصير، وليس يُنتظر ليُبصِر إلا سوءُ المصير!

ثقافة الاستهلاك

صنم حاز الغنج والدلال، وفاز بجوائز الحسن والجمال، فهو الخادم المطيع، والسريع البديع، بنظر العبد الحائر المحتاج إلى سدّ النقص وتقويم الاعوجاج. يلبّي كل رغباتك، ويسدّ كلّ حاجاتك، جرابه لا يَنضب، وسوقه لا تَخرب، همّه الأوّل مرضاتك، وهَناؤك وراحتك، ولا يأخذ منك إلا كلفة التوصيل، والثمن المرتضى القليل، أو قُل الكثير فهذا غير مهم، ما دامت البضاعة واصلة إلى الروح والجسم.

صنم يَظنه العبدُ عبدَه، وأنّ بمقدوره صدَّه متى شاء وردَّه، ولكنّ الحقيقة منبئة بخلاف ذلك، وأنّه مُورد صاحبَه المهالك. فهو يتغلغل في النفس شيئاً فشيئا، حتى يَلتهِم جوهرها طازجاً ونيئا، وهو مثل الشَّرَك الأخّاذ، لا يستطيع العالقُ فيه منه النفاذ، يَستحوذ على لبّ اللبيب، وعلى محفظة الكانز النجيب، فيغريه ما دام ذا مال بالشراء، ويؤمِّلُه السعادة والثراء، حتى إذا ما قَلّ مالُه، واشتكت زوجُه وعيالُه، لم يقلع عن عادته، كيف وهي سرّ سعادته، فيستمر على هذا الصنم بالإنفاق، مع مزيد من البحث خشية الإرهاق، فالشراء دليل الثراء، وترياق السعادة والهناء!

ولا يختلف اثنان على أنّ اقتناء شيء وشراءه ليس بجريمة، ولا يقدح في شرف المرء أو القيمة، وإنما المشكلة فيما نزل بالموازين من خلل، وألحق بالمفاهيم التبدّل والعلل، فلم يعد الأمر مقتصراً على الحاجات، أو الملمّات والضرورات، بل صارت السلعة تُشترى لذاتها، كأنّها للنفس من لذّاتها، وصارت الرفاهية مذهباً مفروضا، والكفاف منهجاً مرفوضا، وصارت الأشياء تصنع لتباع، أكانت مفيدة أم من سقط المتاع، ومما زاد الطين بلة، والعقلَ ندرة وقلّة، أنّ ارتياد السوق أمسى من الدار، عبر جهاز الاتصال الجبّار!

انظر مثلاً إلى المطبخ ترى العجب العجاب، فمواعينه كعدّ الحصى والتراب، فبدل القدر تجد القدور العديدة بمختلف الأحجام والأشكال الفريدة، وبدل القصعة عشرات بل مئات، فهذه للضيفان والمناسبات، وهذه للأعياد والأفراح، وتلك للمآتم والأتراح، وصنف معتمد للغداء، وآخر للتسلية والعشاء. وبدل الملعقة ملاعق، عَدُّها يُعيي المجرِّب الحاذق، فنوع للصغار وآخر للكبار، وهذه للأرز لا الحلوى، وتلك للحساء والسلوى، وقِس على ذلك الكؤوس والأباريق، وكل ما شعّ له بريق، من بقيّة الأدوات ومختلف الآلات.

وفي الحلل والثياب مثل ذلك وأكثر، فهي تمسّ الصورة والمظهر، فلا بد من تناسق الألوان، ومراعاة الجديد من صيحات الزمان، فالأذواق تتبدّل وتتحوّل، ولا بدّ من مواكبتها أولاً بأوّل. فمعطف لهذا السروال، وقميص ملائم صعب المنال، وحذاء يناسب الاثنين، تلبسه الجمعة لا الإثنين، وإن اختلفت الألوان فلا بدّ من تغيير الحذاء، ومراعاة الأجواء والأنواء، فمنتعَل الصيف غير منتعَل الشتاء، وكذلك الأمر في كل قطعة رداء، ثم تزداد وتربو، وفي الخزائن تبيت وتغفو، حتى يتخلّص منها قبل أن تتلف، لتحلّ محلّها أخرى تجَلّ وتُوصف، ثمّ كسابقاتها تُرَصّ وتُرصَف.

ومثل ذلك في السيارات، والهواتف والنظارات، وفي كل ما يباع ويُشترى، والقارئ بها أعلم وأدرى، فهذا هو صنم الشراء ثمّ الشراء، وإضاعة المال في الهواء، لأجل أن يُقال غنيّ موفور، ومتحضّر مسرور، ينال كل ما يريد، ولا يعيش عيشة العبيد. غير أنّه في هذه مخطئ غارق في الوهم، وخاضع للصنم الملثَّم.

الصورة

تدري أنّها لن تبلغ غايتها مهما حاولت، وأنّ أمر الطبيعة فوق أمرها، لكنّها لا بدّ أن تحاول وتعيد الكَرة المرة تلو المرة حتى تَخرج بأفضل النتائج المُرضية فتطمئن وترتاح، ولكن هيهات.

كانت تجلس في غرفتها وتلتقط الصورة إثر الصورة بزوايا مختلفة وزينة وثياب تغيرها بين الحين والآخر بغية الحصول على صورة تجمّلها في عين نفسها أولاً قبل أن تشاركها صديقاتها – وغيرهن – على صفحتها الأثيرة.

لم يكن هذا من السهولة بمكان إذ أنّها لم تؤتَ من الجمال الحظ الأوفر ومن الفتنة النصيب الأكبر. صحيح أنّها أنضر وأحلى من أختها ومن جارتها، ومن الكثير من بنات حيّها، غير أنّ ابنة خالتها تفوقها حُسناً وبهاء، وكذلك زميلتها في العمل، فلا يجب أن تظهر بمظهر أدنى منهما بكثير، بل عليها منافستهما ولو أضنتها الوسائل أو كان النصر بصورة استلزمت الجهد الجهيد والكثير من الإضافات والتأثيرات والتحسينات.

في المقابل كان شاب يتسكع في الطرقات، يمدّ يده ليلتقط الصورة تلو الأخرى مغيّراً الخلفيات واللقطات، ولا يعي ذهنه شيئاً مما حوله إلا ما ارتبط بمظهر الصورة النهائي وهل ستنال رضاه ثم رضا الآخرين واستحسانهم و"إعجاباتهم" عندما يرَونه واقفاً في هذا المكان أو ذاك أو حاضراً في هذه المناسبة أو تلك. صحيح أنّه ليس مصوّراً ناجحاً غير أنّ ذلك لا يهم، فمن بين عشرات الصور التي التقطها لا بد ستثمر واحدة تفي بالغرض وتؤدي المطلوب، وسيترك قلبَه ليخفق مع كل تعليق أو إعجاب خاصة من الفتيات والمتابِعات.

هذا المرض يا سادة مرض خطير فتّاك، يصيب الكثير من الشباب غير أنّه ليس حكراً عليهم، فهو يستهدف النفس في أعماقها وينعكس على أبدى تجلياتها ألا وهي الصورة الخارجية، وقد يطال الشيوخ والكهول إلا أنه بالشباب ألصق وعليهم أقدر. وإنها لمصيبة كبيرة بحقّ أن يصبح قدْر الإنسان ومكانته صورته التي يبدو عليها لا حقيقته التي يخفيها أو نفسه التي يحملها أو مهاراته التي يتقنها.

لقد كان الإنسان منذ كان ساعياً في الأرض مطوّراً ذاته وقدراته لكي يحسّن من ظروف حياته ما استطاع، وكانت العقول السليمة والمناهج القويمة تقدّر الإنسان بما يحسِن صنعه لا بشكله الظاهري من طول وعرض ولون ووزن.

إنّ اهتمام الناس في عصرنا هذا بالصورة هو اهتمام بنظرة الآخرين لهم، كأنّ قدْرهم ومكانتهم نابع من أعين الغير لا من أنفسهم. أي أنّهم بمعنى آخر لا وجود لهم في أنفسهم لكن في عيون الناس، وعليه يجب تحسين الصورة لتحسين الوجود!

استوقفني مرة تفصيل في حديث شريف عن ثلاثة أشخاص من بني إسرائيل ابتلاهم الله، أحدهم بالبرص والثاني بالصلع والثالث بالعمى، ثمّ أرسل إليهم ملَكاً يُذهب عنهم ما بهم ويفتح لهم أبواب الرزق ليختبرهم، فينجو الأعمى ويخسر الآخران. المهم، ما لفتني في القصة كان كلام الأصلع الذي اعتبر صلعه ابتلاء صعباً مُرّاً وأنّه بسببه يحقره الناس. وكلنا نعرف أنّ الصلع أمر شائع بين الرجال مذ كانوا، لا حقارة في ذلك ولا استخفاف، لكن المسكين تعلّق قلبه ولبّه وجوارحه بنظرة الناس إليه ورأيهم فيه، حتى عظم ذلك عليه فكان له بلاء مهلِكاً ومصيبة كبرى.

ومثله مثل شباب اليوم المهرولين خلف صورة ومظهر يلفت الأنظار ويستدعي الاستحسان والرضا ممن يحبّون وسلاحاً في وجه من يكرهون، طامسين بذلك أهمّ ما

يميّزهم ألا وهو حقيقتهم. من هنا كانت خطورة هذا الصنم المحبوب، الآمر الناهي على قلوب أتباعه وعشّاقه، صنم الصورة والمظهر القاضي على الحقيقة والجوهر، والدافع الناس إلى التخفي والتزوير والادعاء الباطل والتضليل، لا لخير ظاهر أو مصلحة مشتركة ولكن إرضاء لصنم من الأصنام لا زال يفتك بالإنسان منذ قديم الزمان. صنم لا يمكن إرضاؤه ولا إشباعه، يطالبك بالمزيد كلما أكرمته، ويحرق أعصابك ولبّك إن أنت تأخرت عنه أو قليلاً أهملتَه. والله المستعان، وإليه الشكوى وعليه التكلان.

الإدمان

كنتُ في الروض أُداوي   بالشذى جَورَ السنينْ

حين نادتنيَ نجلى   أختُ زهرِ الياسمين

وسقتني خمرَها   واستحلفتني لا أَبين

فسبَتني ودَعتني   وجلَت قلبي الحزين

ثمّ لمّا عَرفَت مِن   سِرّ أسراري الدفين

ساءلتني كيف عِلمي   بحياةِ المُدمنين

قلتُ يا زهرةَ قلبي   فيمَ عنهم تَسألين

هُم أناسٌ عَلِقوا   أصنامَهُم كُلٌّ سجين

لا يُطيقونَ انفكاكاً   مِن قيودٍ لا تَلين

أو فراراً مِن فمِ   التمساح أو ليثِ العرين

هُم صنوفٌ شَدّها   شوكٌ مِن السحرِ مَتين

مثلَ مَن أدمنَ شُربَ   الخمرِ حتى ما يُبين

أو تعاطي عشبةٍ   أو خلطةٍ مِن هيروين

أو لُفافـــــــاتِ دخـــــــانٍ تَـــــقتلُ الجســــمَ المَنـــــين

أو ملاقـــــــاةَ البغـــــــايا أو غــــــدا في النــــــاظرين

أو قمـــــــاراً في نــــــــوادٍ تَعـــصرُ العجـــلَ الســـــمين

أو رهـــــانـــاً في ســــــبـــاقٍ وهْـــو لـــو يَـــدري رهـــين

أو تحـــــــدّي الصــــــحبِ في الألعـــابِ حينـــاً بعـــدَ حِـــين

"أو" و"أو" في إثــــــــر "أو" إذ كُلّ "أو" تَحـــــــكي الأنـــــين

أنّ للإدمـــــــانِ أصنامــــــــاً عُشــــــاراً أو مِئــــــين

تَخفـــضُ الإنســـــانَ تُرديـــــه بِـــــــوادي التــــــائهين

تَحتويـــــــــهِ ثُمّ تَرميـــــــــهِ ذلــــــــيلاً ومَهـــــــين

فـــــــــتَراه خـــــــاسراً دنيــــا وأخـــرى أجمعـــين

العادات

﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾

قرآن كريم

بشِعة رغم جمالها ومنفّرة رغم جاذبيتها تلك العادات التي لا يستطيع المرء عنها خروجاً ولا لها مخالفة. عادات ترسّخت في النفس على مرّ السنين حتى صارت فيها أقوى من الدين والمصلحة والمنطق والقانون.

لا بد أن لكل عادة أصلاً وقصة وحكاية، وحكمة وغاية، ولكن حكمتها قد تكون حكراً على أهل زمانها، أو متوقفة على ظروف مكانها ومحيطها، وقد يكون لها جذر ديني أو سياسي، أو طبيعي أو عرقي، لكن هذا لا يعني أنها صالحة على الدوام، في حين لا تزال الجماعة المدنية تطالب أفرادها باحترامها وتقديسها والدفاع عنها والتمسك بها، وكأنّ اضمحلالها اضمحلال للجماعة نفسها وأن في اختفاء تلك زوال هذه من الوجود.

وهب أنّ فوائد هذه العادة ومصالحها لا تزال متحقّقة، فمن أين يأتي الإلزام بها وعلام يُبنى ما دامت ليست بشرع سماوي أو قانون مدني؟

إنّ العادات التي تُفرض على الناس فرضاً دون منطق أو تعليل سرعان ما تفقد جوهرها ومعناها ولو أحبها الناس وتمسكوا بها وحفظوها جيلاً بعد جيل وأخذوها كابراً عن كابر.

صحيح، والحق يقال، أنّ هذه العادات وإن كانت تافهة غريبة ولا قيمة لها في ميزان العلم والحقيقة إلا أنها تشكّل نوعاً من أنواع الأمن الاجتماعي ودليلاً للأفراد على انتمائهم إلى الجماعة الأكبر وقاسمها المشترك، بيد أنّ تحولّها إلى أداة إقصاء للمخالفين أو اللامبالين يجعل منها معول هدم لقواسم جامعة أعم بكثير وأشمل من هذه التقاليد مهما سَمَت في أصلها وحَلَت وفي نفوس أصحابها وأزهرت في حياتهم.

ولهذه العادات تعلّقات شتى، فمنها ما يتصل بالمأكل والمشرب، ومنها المتعلّق بالملبس والمظهر، ومنها المرتبط بآداب الكلام والعلاقات بين الأنام؛ فليست تمسّ جوهر الحياة بحق ولا يترتب عليها ضرر إن خولفت أو حرج إن انتُهكت، لكن رسوخها بين الناس جعل مساسها من المحرَّمات ومحاولة تغيرها من عظيم الموبقات.

وليست العادات الاجتماعية وحدها الحاكمة على الناس، فقد يكون للمرء عادات محلية على مستوى أضيق من البلد والأمة كأن تنحصر في بلدة ما أو عائلة معينة، فمن أين تستمد شرعيتها وسطوتها؟ وقد تكون أصغر من ذلك بكثير فتصبح عادة فردية غير أنها استحكمت بالمرء حتى غدا لا يستطيع انفكاكاً عنها، وإن حدث ولم تُحتَرم يوماً وجد نفسه في ورطة وحرج شديدين.

وأضرب مثالاً على ذلك رجلاً اعتاد أن يستيقظ كل يوم باكراً فيشرب قهوته قبل أن يذهب إلى عمله، فارتبط في ذهنه الاستيقاظ بالبكور فالقهوة، فإن حدث يوماً وتعطّل ركن من هذه الأركان الثلاثة فسيقع صاحبنا هذا في حيص بيص وسيبحث عن إتمام الركن الضائع بأي وسيلة كانت. حتى هنا الأمر ذو وجاهة، لكن لنتخيل معاً أنّ هذا الرجل فرض نظامه على أهل بيته، فأصبح شرب القهوة فرضاً لازماً لا مناص منه أحبه أهل البيت أو كرهوه! ولو تمنّع أحد أفراد الأسرة عن شربها فستنهال عليه الاتهامات

والظنون وكأنه مجرم مأفون. فكيف إذا كانت العادات أكثر عمقاً وأبعد مدى من شرب كأس من القهوة أو التبكير إلى العمل؟

بعض الناس تضطره ظروف الحياة إلى تغيير عمله ومهنته، فتأتيه الفرصة أو الوظيفة مبكرة أكثر من المعتاد أو متأخرة عن وقته بكثير فيضرب بها عرض الحائط، لا لعلة فيها أو سبب مقنع إلا أنها تخالف عادته. ومثله ذاك الذي يترعرع على سماع رواية ما فقبِلها وصدّقها وحكاها لغيره مرات ومرات. حتى إذا خرج له يوم من يُقدّم له رواية مخالفة لروايته اتهمه في العقل والدين وتزوير الحق المبين!

إنّ أُولى ادعاءات الأمم السابقة في سياق رفضها دعوة الأنبياء وتبريرها هذا الموقف السلبي كانت مخالفتها مِلَّتَهم ومذهب آبائهم... أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً لا يهتدون؟!

والمشكلة أنّ هذا الاختلاف بين الجديد المطروح والعادات الاجتماعية أو الفردية سرعان ما ينتقل من مجرد اختلاف في النظر والفهم إلى تهديد للوجود والنفوذ يستوجب تهييج الناس ورَصّ الصفوف ودَقّ طبول الحرب واستعداء القوم على الجديد وحامل لوائه ومؤيده والساكت عنه، أياً تكن حسنات الجديد ومزاياه ومساوئ القديم وعيوبه.

لست بطبيعة الحال أحثّ على إنكار العادات الموروثة ورميها كلها في جب عميق أو واد سحيق، ولا على اتباع كل دعوى جديدة لحداثتها وعصريتها، وإنما أدعو إلى وضع الأمور موضعها ووزنها بميزانها الصحيح والحكم عليها بعد النظر والتمحيص والفحص والتدقيق، ومن ثم رفضها جملة أو قبولها أو اختيار شيء منها أو تطويرها، بما يحقق مصالح العباد ويوافق سبيل الحق.

ومتى كانت العادة، بشقّيها الفردي والجماعي، خفيفة على الناس تسايرهم ولا تسيّرهم فهي أمر مرحّب به لا غبار عليه ولا حرج باعتماده والثبات عليه. لكنها متى تمكّنت من النفوس

وفُرضت قسراً على رقاب الناس وحياتهم فاعلم، يا رعاك الله، أنها قد استحالت صنماً من هذه الأصنام الكثيرة والتي إن لم تحطَّم اليوم فستزداد الفجوة بينها وبين الناس حتى يأتي يوم يَحمل فيه فتى متحمس معوله فيهشّمها، والخوف كل الخوف من أن يحطمها على رؤوس عُبّادها فتقع الفرقة والشقاق ويدبّ النزاع والعراك، وتتحوّل الفتنة الصغرى إلى مصيبة كبرى لا يعلم مداها إلا الله، وهو المستعان على حرب الأصنام.

إرث القوم

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

قرآن كريم

قـــــال الســـــفيهُ خُـــذوهُ		وأَعمِلــوا الســــيـفَ فيــهِ
وبالســــــيـــاط انهَشــــوهُ		لا تَحقِـــروا جَـــنيَ فيـــهِ
حــــــذارِ لا تَرحمــــــوهُ		فضــــــعفُكُم يُنجيـــــــه
والمــــــوت إن تَتركـــــوهُ		يُــــــرديكُمُ يُحييــــــــه
هَجــــا النُّهـــــى ثمّ أَزرَى		بإرثنـــــا وذَويـــــــه
وعـــــن هُـــدانا تنـــاءى		مخطِّئـــــاً مُقتفيــــــه
فــــلم يُعِــــرنا قِيَــــاداً		وســــارَ دونَ شــــبـيـه
وعَــــبَّ ممّــــا أنِفنـــــا		وعَــــافَ مــــا نشـــتهيـه
أعرافَنــــــا لم يُقَـــــدِّس		وحَــــطَّ مــــا نصــــطفيه
وغَــــرَّرَ الـــنشءَ فينـــا		بســــحر مــــا ينتقيــــه

أجدادنا قال ضَلّوا   بل عُرفهم لا يَعيه

ونحن لولا هُداهُم   لسنا بشيءٍ رَفيه

فأيّ خمرٍ تراه   قد احتسى ابنُ أبيه

حتّى يَصيرَ يَباباً   عقلُ المُضلِّ الكريه

ما كان يوماً مَلاكاً   أنوارُهُ تعتليه

ولا نبيّاً هَدانا   يَضُمُّنا كبنيه

ولا أميراً علينا   أرواحَنا نَفديه

فإن نُطِعهُ هَوينا   مِن كَفّ تيهٍ لتيهِ

أو إن تَركناهُ صِرنا   أضحوكةً تعتَريه

فليس إلّا عِقاباً   درسٌ لمن سيَليه

...

يا تعسَ قومٍ أَضاعوا   الحِجا برأيٍ سفيه

الأكثرية

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسبَابُ﴾

قرآن كريم

قال الراوي: كان يا سادة يا كرام، ويا حَمَلة العلم والحسام، رجل أوتي من الجاه حظاً ونصيبا، ومن العقل رجحاناً جعله عادة مصيبا، ومن المال ما صيّره ميسورا، ومن الأهل والعزوة ما كان به فخورا، وكان على وفاق مع أهل بلدته، مسموع الرأي في عشيرته، ومقدَّماً دون الشيوخ، وفوق الشباب والفروخ.

وحدث أن سافر هذا الرجل في تجارة، إلى بلدة ليست بالجارة، بل بعيدة مسيرة شهور، أنأى عن الحواضر وأدنى للثغور، وكان يؤمِّل من سفره هذا الربح الوافر العظيم، وفتح أبواب الخير العميم. ووصل الرجل وجهته أخيرا، واستقبلوه استقبالهم وزيراً بل أميرا، وأكرموه وقدّموه، ومن بناتهم زوّجوه، وعليه أقسموا أن يمكث بينهم حولاً كاملا، ثمّ يرحل إلى دياره وعشيرته آيباً قافلا.

وأتقن الرجل لسان القوم ولهجتَهم، وخبر تراثَهم وعادتهم، وأحبهم وأحبّوه، وعلى أبنائهم فضّلوه، لكنّ حيرة دبّت في نفسه، ووسواساً راوده في رأسه؛ إذ كلّما همّ بإبداء رأيه في مسألة، مما يتداوله الناس في الجلسات المقفلة، أو في أمور الشأن العام، من السياسة والعلاقة بالحكام، أو من فروع الخلافات الدينية، والفروقات المذهبية، وما إلى ذلك،

من أمور تتشعّب فيها المسالك، وجد رأي الناس يعارض فكرته، كأنهم اطلعوا على سريرته فتعمدوا مخالفته، أو أنّ شيطاناً من الشياطين، أقسم على زرع الفرقة والبَين، فكلّما اتفقوا على أمر سوّل له غيره، أو اجتمعوا على رأيٍ رماه بالشك والحيرة. ولو أنّ ذلك وقع مرة أو مرتين لما اكترث، ولما راوده الوسواس ولُبَّه نَهش، لكن الأمر تكرر وقوعه، حتى شكَت رأسه الصداعَ والألم ضلوعُه، فصار وهو المحب للنقاش وتبادل الآراء، يكتفي بالصمت والإيماء، كلما طُرح موضوع أمامه، أو شغل البلد ما أقعده وأقامه.

وسألته مرة زوجه الثانية، وهي تهدهد رضيعتها هانية، عمّا يكّدر صفوه ويشغله، وعلى طول الشرود والتفكير يحمله، أهي السوق والتجارة، أم أنّه أزعجته في طريقه الجارة، فتلكّأ هنيهة ثمّ صارحها، وبالحقيقة كاشفها، فقالت وما يضيرك إن خالفتهم، ورأيَك أريتهم وشاركتهم، فما هم إلا بشر مثلك، لست تخشى منهم ما يضرّك. فقال ويقولون عني مجنون، أو له في تعمّد الخلاف فنون، وأنه محبّ للتميّز والجدل، والمعارضة في كل مناسبة ومَحل، أو يحسبونني جاهلاً بالحياة غبيا، أو أنّ عقلي أمسى بعد النضارة شقياً عييا! بل آليت على نفسي أن أسكت، وأن أقمع فكري وأصمت، وأن أمشي بين الناس كما يمشون، وأن أُسمِعهم ما يحبّون، وإن خالف ذلك عندي رأياً سديدا، أو كان مذهبهم في الضلال بعيدا، فذلك أهون عندي من أن يشار إليّ بما لا أحب، وأَسقط بعدُ من عين المبغض والمحب.

وبات ليلته على ذلك العزم، غير آبه بنداء العقل والفهم، أو نصح الزوجة الرشيد، ورأيها السديد المفيد. وفي الليل الداجي الحالك، وقد غفت الخليقة والممالك، راوده حلم عجيب غريب، خليط من الطلاسم والترهيب، وفيه بدا له صنم عملاق، يهزأ به ويرميه بالإخفاق، وأنه جبان رعديد، لا يصمد للتحدي والتهديد، وأنه لا يستحق العقل الذي يحمل، ولا الخبرة التي لم تكتمل، وفي نهاية حلمه، علاه الصنم العملاق بقدمه، قائلاً ودّع الحياة يا مقلّد الجماهير، فلست إلا ذرة في هذا الجمع الغفير، لا تختلف بشيء عن عبيدي، كلكم

ضالع في تمجيدي، أنا صنم الأكثرية والأغلبية، الظافر بتغابيكم أحلى هدية، خوفكم لي زاد، واستسلامكم مراد، سآخذ عقلك وما وعى، وقلبك وما احتوى، ولن أترك لك إلا بعض الأنفاس، تعبدني بها مع جموع الناس.

وهنا قفز صاحبنا من فراشه هلعا، خائفا مروعاً جزعا، يصيح لا تفعل أرجوك لا تفعل، إني أنا المخطئ والمغفّل، سأرحل صباحاً عن هذه الديار، بعد أن أصدح بما كتمت من أسرار، ولن أسعى بعدُ خلف رضا الناس، ولن أخاف الوشاة والحراس، وسأقول الحق ولو كان مرا، ولن أعصي له نصيحة أو أمرا، فهذا أهون من أن أكون فارغاً كالدمية، وسهماً بيد الناس مطاوعاً في الرمْية، فالعقل والرشاد والإرادة، من أعظم ما حباني الله لبلوغ السعادة، فإن فرّطتُ بها فيا ويلي، ويا سواد يومي وليلي. ثم عاد مجدّداً للنوم، وهو عازم على مواجهة القوم، بينما غرقت زوجه في الذهول، ثم ضحكت وقالت: معذَّب مخبول!

على باب الدير

وقفتُ ببابِ الديرِ والكلّ راكعُ   تَناهشني في قاصديه المنازعُ
أأنقذُ قَومي مِن غياهِبِ وَهمِهم   ليَنجوَ مَن أَمَّ الردى وهْوَ خانع
أم اَترُكهم نهشَ السياطِ وخَمرُهُم   تُقاسِمُهم أنَّ السياطَ مَنافع
ولمّا أخذتُ البابَ أَطلبُ كَسره   أحاطت بي العبدانُ عنه تُدافع
فقلتُ أَفيقوا إنّما البابُ سِجنُكم   ودِينُكم المعوجّ كالسمّ ناقع
وأصنامُكم مهما تَبهرَجَ قِشرُها   وحوشٌ وأنتم زادُها المتواضِع
فما زادَ قولي الناسَ إلّا جَهالةً   ببلواهُمُ ثاروا علَيَّ وناطَعوا
وقالوا أَشَقَّ الصفِّ تَبغي وحَرفَهُ   فدونكَ أسيافٌ حِدادٌ قواطِعُ
وقلعكَ قلبَ الشمسِ أقربُ مَطلباً   وأرواحُنا سورٌ حصينٌ ممانِع
فإن تَلتزم صفّ القبيلة تُكرَمَنْ   وإلّا فقد جاءت إليكَ المَصارِع
فلم أُلقِ أقلامي ولم أَحنِ هامتي   ورأيَي لم أكذِب وحلميَ واسع
ورحتُ أُعيدُ القولَ ثمّ أَزيدُهُ   لعلَّ ندائي تَلتقفْه مَسامع

فـــأيقَظَ أقوامـــاً تَنـــاءت ديارُهُم وجـاري الذي أَرجـوهُ لـلذلّ ضـارع

إذا النـاس لم تَسـلُك إلى العـزّ شرعـةً حقيـقٌ لهـا طـولَ الحيـاةِ المواجِـع

وإن كَتـبَ اللهُ الضـلالَ عـلى امـرئٍ فلـيس له هـادٍ ولا الدهـرَ ناجِـع

كرة القدم

أختم ذكر الأصنام المادية وشبه المادية بصنم عجيب غريب قلّما يشبهه صنم أو يدانيه وثن. إنه صنم كرة القدم وما لف لفها من ألعاب، تستحوذ على عقول الشباب، الفتيان منهم والفتيات، أبناء العامة وأبناء الذوات، ولا يسلم من براثنها الكهول، ولا الشيوخ ذوو العقول.

له فِرَق وأسماء، وشعارات وأضواء، وكنوز وأموال، وعقود وأحوال، وأغان وألحان، وقمصان ذات ألوان. وله نواد للمشجعين، وملاعب للتمرين، إن استضاف فريقاً فالفخرُ في إذلاله، وإن حَلّ ضيفاً فالعارُ في إجلاله، كأنّما الأخلاق فيه معكوسة، والأعراف عنده منكوسة، فترى المرء يشتري البطاقات ذات الأثمان، ويجتهد في نزول الميدان، لا لينال بضاعة أو نفعا، أو يحقّق مكسباً يفيده كمّاً ونوعا، وإنما ليمتّع ناظريه برؤية اللاعبين يَجرون، وفوق العشب يهرولون، ويتبارون في الإقدام والإحجام، والدفاع والاقتحام، كأنما هي حرب دائرة، وهو واقف يمتّع ناظره، أو أنه سيناله من المغانم نصيب، أو يعود إلى داره محمّلا بأغلى الهدايا وأفخر الطيب، فيا لها من تجارة خاسرة، ولذة عابرة، ووهم سرعان ما يتبدد، وأبواب سعد من قبل أن تُفتح توصد.

وانظر إلى المشجِّع المسكين، تراه كالواقف على شفرة السكين، إن فاز فريقه قال سجلنا وربحنا، وكرامة الفريق الآخر بالأرض مسحنا، وهو لم يبرح في الملعب مقعده، أو في بيته متسمّراً خلف المنضدة، ثم يهذر كأنه هو الذي جرى لساعات، ودوخ اللاعبين بين استلِم الكرة مني وهات، ونسي أنهم إنما للاستيلاء على ماله يركضون، ولبناء المجد على ظهر أمثاله يلعبون. أما إن خسر فريقه المحبوب، فانتكاسة تتحطم منها القلوب، وقد تجري

الدموع أنهارا، ويدوم الحزن ليلاً ونهارا، ويتعرّض للشماتة والاستهزاء، ممن كان يظهر لهم قبل المباراة التحقير والازدراء، وما كان عليه لو أمسك بين فكّيه لسانه، وتابع مباراته دون تعريض ولا إدانة، أو لو كان شغل نفسه بما يفيد، وتجنب الملاحاة والوعيد، وحفظ ذهنه وماله، ونمّى عقله ورعى عياله.

ثم انظر إليه وإلى أمثاله كيف تتفجّر عندهم ينابيع المعرفة الدفّاقة، والأفكار الخلّاقة البرّاقة، وكيف تظهر الذاكرة الحديدية، كأنها من السماء نزلت هدية، مخصصة لهذا الصنم، المسمى كرة القدم، فلا تُستَعمل في غير مجاله، ولا تظهر إلا في أحواله، فيحفظ المشجع تاريخ اللاعبين المبرّزين، والأساطين الراحلين، ويعرف لكل واحد منهم تاريخ ميلاده، وعدد بناته وأولاده، وماذا يرتدي ويركب، وأي شيء يأكل ويشرب، وفي أي موقع يلعب، وفي أي الركلات أبدع وأنجب، وكم كرة سدّد، وكم هدفاً سجّل أو بدّد، وكم دفعوا له لينتقل، أو عوّضوه قبل أن يرتحل، وفي أي سن اللاعب يعتزل، وبأي شيء بعدها ينشغل.

وتَراه يُغالي في حب لاعبه المفضَّل وفريقه، ويخاصم الناس في عظيم شأنه ودقيقه، ويضع صورته على الهاتف والحاسوب، وعلى جدار القلب وجدار الطوب، وفي السيارة والعمل، ويذكره دون كلل أو ملل، حتى لو بلغ التعب منه يوماً مبلغه، ثم ذكِر أمامه لاستجمع بأسه وفي الحديث أفرغه، فأي سحر هذا وأي قوة، وأي ترياق يديم الشباب والفتوّة، ويقوّي الذهن والذاكرة، ويبقي البديهة مستنفرة حاضرة. وصاحبنا هذا لو طالبوه حفظ سورتي الإخلاص والمسد، لتذرّع بكثرة الأشغال وانقطاع المدد، أو حضّوه على قيام الليل وإطعام المسكين، لوجد ذلك أصعب من الانتقال من دين إلى دين، فهل مثله حُر أم عبد، وخضوعه لصنمه هزل أم جد؟!

النفس

أخطرها وأعجبها، وأخفاها وأظهرها، هي هو وهو هي، وليست تصفو له وليس يصفو لها. إنها سر من الأسرار التي تنادي البشر وتدعوهم لاستكشافها وسبر أغوارها، ثم تعود المرة تلو المرة لتبرهن لهم أنها مُحكمة الإغلاق مستعصية على الاختراق، وأنها وإن أبدت من محاسنها طرفاً أو من خفائها ومضاً فإنها تبقى المستترة بالظن المتحصنة بالوهم المتوارية خلف ألف ثوب ورداء من نسيج الحيرة والخفاء.

قد تكون عون المرء ونصيره، وقد تكون عدوّه وخصيمه. تفيض عليه من خلائقها حتى لكأنه لم تصبغه الحياة بشيء قط. ثم تغيّر جلدها ومَيلها حتى لكأنه كائن جديد، فيألف خادمُها ما لم يألف، ويصدر عنه ما كان من مثله ليُستنكر ولا يُعرف. سريعة التبدل شديدة التعلق، إن دُلّلت تَسلّطت وإن جوبهت تمرّدت وإن قُمِعت سكنت وخضعت ثم إذا اطمأنتَ لركونها وهدأتها هبّت وشبّت ومن عقالها قفزت وجنّت وجنَت.

إنها النفس، أو "الأنا" على طريقة الفلاسفة والمتكلمين، لا تكاد تَترك شيئاً مما يُعشق ويُقدّس ويُعبد من دون الله ويُألّه إلا ولها به تعلّق من قريب أو بعيد، لكن لنحصر حديثنا ههنا بـالذات والـ"أنا".

من الطبيعيّ جداً أن يسعى المرء في خدمة ذاته وتحقيق مصالحه، وما ذاك بالشيء الذي يعاب ما دامت الوسيلة مشروعة والغاية سليمة شريفة. لكن المشكلة تظهر وتتجلى عندما يضع المرء نفسه فوق كل نفس وقبل كل اعتبار، فيصبح إلحاق الأذى والضرر بالآخرين عنده مبرَّراً ومحبَّذاً إن كان جالباً له الخير والهناء أو دافعاً عنه السوء وما يكره.

وليست المسألة في جوهرها مجرد دفع مكروه مؤكّد أو متوقَّع، أو تحقيق مصلحة قريبة أو بعيدة، وإنما في جعل خدمة الذات وإرضائها غاية لذاتها والسير خلفها في كل اتجاه وسبيل. وإن كنا نعيب على المرء أن يَعبُد غيرَه من البشر فكيف نرضى له أن يعبد ذاته؟ وهل ذاته وذوات غيره إلا أخوات متشابهات؟ وهل هي إلا كائنات يلفها الغموض وتكتنفها العلل ولا تبرحها النقائص والأمراض، فكيف يُعبد إله ناقص مريض؟!

وقد يُنكر البعض عبادة الإنسان نفسه وهو الذي لا يَنفكّ والزمانَ يَضرب ويَسرق ويَظلم ويَقتل إرضاء لذاته، ويرى على الدوام الصوابَ قرينَ رأيه، وفكرَه المرجعَ الحاسم، ويقيس كلّ ما كان ومَن كان على نفسه، ويقدّمها على جميع ما عداها سمعاً وطاعة وحباً وكرامة. فأيّ شيء تكون العبادة إن لم تكن هذه؟ والعبودية الخضوع والتذلل والطاعة، وها نحن نرى عبد النفس خاضعاً لها مطيعاً لا يعصي لها أمراً ولا يردّ لها رغبة، ثم نراه يتذلل لها فيطلب رضاها، وما أعجب طالب رضاء نفسه، يريد ليشعر بالنشوة والفخار والسعادة والانتصار فيبيح لها كل شيء فلا قيد ولا شرط ولا حد ولا حاجز، أفليست إذن إلهه ومعبوده؟!

إنّ عبادة النفس لمن أخطر العبادات وأهلكِها، وإنّ ترويض النفس لمن أَلَحّ العلاجات وأصعبها، فما أحوج الإنسان إلى قهر نفسه وإخضاعها، لا كُرها وبغضاً واحتقاراً وإنّما استنقاذا لها من براثنها أولاً ومن غضب الله وعاجل عقابه وآجله. وسياسة النفس ليست بالأمر الهيّن الميسور، فهي كما سبق بيانه وسبق للقارئ إدراكه وعرفانه، متغلغلة فيه وممسكة بتلابيبه ممزوجة بكل قطرة دم منه، وعقله وفكره وإرادته لا تنفك منقادة لها كلما شرد وذهل، ثم يسترجعها ليواجه نفسه كلما استجمع قواه وصمم وركّز، ولا يزال بين هذه وتلك حتى تغلب إحدى هاتين العادتين على جل حالاته، ولا يزال في صراع حتى يدركه الموت وهو على ذلك.

يا سائلي عن خبايا النفس

يا سائلي عن خبايا النفسِ قِف ساعةْ   واسمَع بعَقلكَ إنّ النفسَ خَدّاعــــةْ

كأنّهــا الغــولُ لكــن فيــكَ كامِنــةٌ   تَصـطادُ باسمـكَ ثمّ الـكلَّ بلّاعــةْ

أظفارُهــــا رغبـــــاتٌ لا تميّزهــــا   أنيابُهـــا خافيـــاتٌ جِــدُّ مَزّاعـــةْ

وحشيّةٌ ثُمّ لا تَــرضى انفكــاككــما   كالسوقِ فيها انتما الشرّاءُ والباعةْ

فــإن أردتَ نجــاةً مِــن علائقِهــا   والفـوزَ يومَ تـرى الأقـوام مُرتاعـةْ

فــاصرِف نواظرَهــا عــن كلّ فاتنــةٍ   فإنّهـــا تَشـــتهي، للغـــير سمّاعـــةْ

وأعطِهــا مــا تَــرى حقّــاً يُناســبها   لا مـا تمنّـت فبنـتُ الدهـرِ طمّاعةْ

وزِنْ مـــذاهبَها بالحـــقّ منتخِبـــاً   واعزِم عليها وإن خارت فلا طاعةْ

وسُـــسْ خواطرَهــا واقمــع رغائبَهــا   ولا تكـن عبـدَها يومـاً ولـو سـاعةْ

الهوى

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

قرآن كريم

الهوى، وما أدراك ما الهوى. إنه ذلك الدافع الخفي العجيب طلباً للنشوة والسرور، وتحقيقاً للرغبة والحبور. إنه داعي الرضا والراحة، واللذة المتاحة. وهو مما يتعلق بالنفس وصفاتها، وعلائقها وأسقامها، وإنما أفردته بالحديث لأجل تعلقه بالشهوة والسعادة، دون المصالح والمفاسد المعتادة، فقد يهوى المرء ما فيه نفعُ جسمِه أو ضرره، وقد يشتهي ما فيه قوّةُ العقلِ أو خوَره، فالمسألة تدور على الرغائب والملذّات، لا على تقديم ذات على ذات، وإن كان للأولى من الثانية نصيب، وللأخرى على أختها تأثير وترتيب.

اشتهت نفسه النظر فسمح وأطلق، ثم اشتهت التجربة فخاض وأعمق. ثم رنَت إلى المعالي فركبها، ثم إلى النقائص فنزلها. راودته الدعة فسكن، والتعب فأهلَك وأثخن. أمرته كشفَ الستور فما تلكّأ، وإتيان المحظور فأسرع وما أبطأ. إن قالت "تصدَّق" أفنى ماله كُلّه، وإن أوحت بـ"أمسك" حرَم السائلَ المالَ وظِلّه. فهُما كذلك ما دامت السماوات والأرض، رغباتها أوامر وطاعتها عليه فرض.

الخير إن فَعَله فلرغبته لا لنفعه، والضرّ إن أتاه فليس لشدّته وبأسه، إنّما هو صادر عن الهوى وتابع له، أينما يوجّهه يمضي سريعاً كالأبله. إن كان في الطاعة والعبادة، والخير والعون والإفادة، مضى وأقدم، ولا تردد برهة أو أحجم، وإن في البغي والاجتراء، والأذية والافتراء، اقترف بكل سرور وهمة، كأنّه قاصد من المعالي القمّة، فلا منطق ولا عقل أو حُجّة، في استبيان الطريق والمَحجّة، غير تحقيق الشهوات، وإشباع الرغبات، وارتياد الملذّات، واقتناص اللحظات واعتياد الآفات.

ومما يزيد الطين بلة، والحال علة، أنّ الهوى لا يرضى بأن يقف عند حدِّه، بل لا بد له من مضاعفة جدّه ومدّه، فيزريّ بعبده بعد فقدان رشده، ويقوده إلى حتفه وحده. فكم يسرّه عبثه بالأفكار، واختلاق الذرائع والأعذار، وامتهان التبرير والتعليل، والتمادي في التزييف والتضليل، فيرفض الحق المبين، ويصفه بوسوسة الشياطين، ويزيّن الجحود، ويُعلي للباطل البنود، ويُعلّم العبد خوض كل معترَك، ولو ذَرة صواب لا أبصر ولا أدرك، ويعوّده المراء والجدل، والفخر باللغط والزلل، فلا يُبقي له شيئاً من الدين، اللهم إلّا القشورَ للتزيين، أو حتى القشورَ يَرمي فلا يُبالي، أبالزندقة رُميَ أم بالخَبالِ.

وأسوأ من هذا وذاك وذيّاك، من حاز من العلم خير مِلاك، ثم أتاهُ الهدى يَسعى على قدمين، واضحاً بَيّناً يَهدي متلقّيه النجدين، يحضّه على التزوّد للآخرة، مِن قبل أن يحشرَ في الوجوه الباسرة، فيرفض التسليم والانقياد، لداعي النجاة والرشاد، ويركب أمّ عقله، ويتمسّك بغيّه وضلاله، ويتّبع هواه متباهياً بانحرافه واختلاله، لا لأنّ ذلك أَسَدُّ في نظره وأَصوَب، بل لأنهّ أحب إليه وأرغب، فيا سوء ما ينتظره في الختام، إن لم يَتُب ويتواضع لرَبّ الأنام.

الحُب

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾

قرآن كريم

قالوا قديماً الحبّ أعمى، وإنّما الأعمى المِحِب، الذي يسحر هواه منه الروح واللب، فيعطي محبوبه فكره وعقله، وبعضه وكلّه، ووقته ودمه، ويجعله شغله واهتمامه.

وقد يكون المحبوب رجلاً أو امرأة، أو ولداً أو جارية، أو عظيماً من جنس الملوك والحكّام، أو مشهوراً لمع نجمه بين العوام، أو لاعب كرة أو سائق سيارة، أو فريقاً يتربّع في الصدارة، أو مهنة يوليها العناية، أو شغفاً يتملكه وهواية. وقد يفرد المِحب قلبَه للمحبوب، وقد يوزعه على كثيرين بحسب المطلوب والمرغوب، لكن المشترك يبقى الحب العظيم، والتعلّق القديم، وإفناء الذات فيه وفي هواه، وإطاعته كأنه الملك والشاه، أو الرب والإله، فليست رغباته تُرَدّ، وإن كان ليس لها حصر ولا حَدّ، فيستحلّ لأجله الحرام، ويُغضِب فيه اللهَ والأنام، ويُضيّع حقوق نفسه والآخرين، ولو كانوا أقرب الأقربين، وهذه معضلة المحبين.

ومثل الحب البغض والكره والقِلى، وحِقد يترك القلب مشحوناً ومبتلى، فلا يرى للمكروه حسنة تُذكر، أو فعلاً يُشكَر، ويرى كل ما يجيء منه سيئاً وأسود، ولو جاد بالدر والياقوت والزبرجد، ويطيل في كل مجلس عذله وملامه، ويبني عليه عمله وكلامه، ويأخذه في الحسبان، في كل وقت وآن، في السعي والإقدام، والإعراض والإحجام.

فإذا بالحب والبغض أصنام تَنهى وتأمُر، وتُشجّع وتزجر، يَتبعها كل أعمى بصير، تُعوِّده التقتير والتبذير، وسوءَ التصرّف والتقدير، وتقوده برضاه إلى سوء المصير.

الحُـــــبُّ أمْـــــلكُ للقلـــــوبِ ومـــــثلُه البغـــــضُ الدفـــــينْ
ضـــــدّان مـــــا نَـــــزلا فـــــؤاداً ثمّ عـــــاش بـــــلا أنـــــين
ملَـــــكا عليـــــه شِـــــغافَهُ حـــــتى غـــــدا لهـــــما الـــــرهين
فـــــترى المحِـــــبَّ وإن يَـــــرى أعمـــــى الخُطـــــى لا يَســـــتبين
تبـــــدو مَســـــاوئُ حِبّـــــهِ فيقـــــولُ زادُ المتقـــــين
ويَـــــراهُ في سُـــــبُـــــل الفجـــــورِ فيَـــــدّعي بـــــردَ اليقـــــين
وإذا دعـــــاهُ إلى المَهـــــالِك خاضَـــــها كالحـــــالمين
ويقـــــومُ مِـــــن فخٍّ لفـــــخٍّ مُشرِقَ الفـــــمِ والجبـــــين
ويُـــــصرُّ أنَّ حبيبَـــــهُ جَبـــــلٌ عـــــلى الحـــــقِّ ركـــــين
وتـــــراهُ يومـــــاً إن قَـــــلى طمـــــسَ المحاسِـــــنَ أجمعـــــين
حـــــتى تَخـــــال خصيمَـــــهُ ولدٌ لإبلـــــيسَ اللعـــــين
أو أنّـــــه الليـــــلُ البهـــــيمُ فـــــليـــــسَ يَجـــــمُـــــلُ أو يُـــــعـــــين
أو أنّ طلعتَـــــهُ الكســـــوفُ ونطقَـــــهُ محـــــضُ الطنـــــين

أو أنّـــــه مهـــــما تنَسَّـــــكَ   راســـــــخٌ في المشركـــــين

أو أنّـــــــهُ والخــــــيرَ لا   يَتدانيـــــانِ مَـدى الســـــنـين

ويـــلُ ابـــنِ آدمَ مِـــن هَـــواهُ   ومِـــــن تَعنُّتِـــــهِ المشـــــين

عبَـــــدَ المحبَّـــــةَ والقِـــــلى   فأشَـــطَّ عـــن دنيـــا وديـــن

الخوف

﴿وليُبَدِّلنّهُم مِّن بَعدِ خَوفِهِم أَمْنًا ۚ يَعبُدُونَني لَا يُشرِكُونَ بِي شيئًا﴾

قرآن كريم

الخوف، وقود الأصنام المتغلغلُ في نفوس عبّادها، المتدفقُ في دماء روّادها، والذي لا يكاد يَسلم منه صنم أو عبد، أو جماعة أو فرد، فلولاه لم يعبد البشرُ بشرا، أو فكرة أو حجرا، ولولاه لما رضي الفرد بالخنوع، والجماعة بالخضوع، ولما تَمسّك المتسعبِدون بعروشهم، والأفراد بقروشهم، وأصنام الماضي بالحاضر حذر الزوال، والحاضر بالمستقبل خشية الاضمحلال.

هو إذن خوف ذو اتجاهين، وإن لم يُر بالعين ويُلمس باليدَين، ظاهر وباطن، وبارد وساخن. فخوف الشعب جليّ وواضح، لجهله وضعفه كاشف وفاضح، له عويل وضجيج، ولهج به كأنّ أفراده الحجيج. بينما خوف المعبود متلطّ خفي، لا بالنائم وليس بالعيي، لكنه يعمل في سكون، لا ينفكّ ناسجاً شباكه في قلب الفرعون، فيصبح خائفاً الناسَ وغضبتَهم، والمقهورين وثورَتهم، فيُخفي خوفَه خلف قناع من شدة وغضب، وستار من جلجلة في الخُطَب، رجاء أن ينتقل خوفُه إياهم إليهم، ويعود وبَالُه جملة عليهم، ولو عرفوا حقيقته لاحتقروه، وفي لحظات عن كرسيه خلعوه، ولكنه الخوف يتلاعب بالطرفين، فلا مستريح ولا نائم قرير العين، كأنهما كرة وأنه طفلان، يتقاذفانها ثم يتشاجران، ثم على مواصلة

اللعب يتفقان، فيا لها من حال عجيبة، ودنيا غريبة ومعادلة مريبة، ويا له من زمن الكل فيه مفتون، المتوّج والمعمّم والمقدّم والدون، راجي السلامة وطالب النجاة، والتائهة خطاه في هذه الحياة.

والخوف أشبه ما يكون بالوحش المتربص بغد الإنسان ومستقبله، يتحيّن الفرصة للإيقاع به واستدعاء مقتله، أو تجريعه المر والعلقم، أو جعله أضحوكة يلوكها كل فم. فمحور تموضعه القلب وأغواره، وأرض لعبه الغد وأسراره، فليس على الحقيقة بالواقع الملموس، وإن كان على الدوام المستشعَر المحسوس، وهذه عجيبة من عجائب الدهر، عن قلق يستولي على اللب والفكْر، يشغل صاحبه صباح مساء، كأنه مختلط بالماء والهواء، وإن لم يُعرف له مكان، أو كان خفيّاً أو ما كان.

فإن قال قائل كيف تألّهه على الإنسان، ولم يأمره بعبادته أو بوصل أو حرمان، أقول بل فعل مثل ذلك وأكثر، وإن أنكر السامع من أمره ما أنكر. ألم يخوفه الفقرَ فأمسك ويدَه قبض، وسوءَ السمعة فجاهد نفسَه وأنفق على مضض، والعاقبةَ الوخيمة إن تكلم، فكتم في قلبه ما كتم حتى تفحّم، وأن يوصمَ بالغباء فعن معارضة القوم سكت، أو بالجهل فتكلم فيما لا يحسِن والحقَّ بَهت، فهو على الدوام مطيع له سامع، وخاضع لأمره تابع، يرضيه دون كلل أو ملل، ويستفتيه في الأمر الهيّن والخطب الجلل، يَذكره أكثر من ذكره ربه خالقه، ويخشاه أكثر من خشيته العصيان وبوائقه، فبالله عليكم إن لم تكن هذه كلها عبادة، فأي شيء تكون يا سادة؟

العلم

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحْمَنِ نُقيضْ لهُ شَيْطَاناً فهُو لهُ قَرِينٌ * وإنَّهمْ لَيَصُدُّونهُمْ عَنِ السَّبيلِ وَيحسَبُونَ أنهم مُّهْتَدُونَ﴾

قرآن كريم

التقيا على رصيف المشاة قبالة شاطئ البحر بعد غياب سنين طوال. وكانا قد تعارفا أول الأمر خلال عملهما في المغترب. أولهما كان خرّيج الجامعة الأمريكية، والآخر خريج الجامعة الإسلامية، وكان كلاهما ذا اختصاص علمي، أو مدني، كما يقال في بعض الجهات. ثم تفرّقت بهما السبل وبعدت المسافات حتى جمعتهما هذه اللحظة لاسترجاع الأيام الخوالي لحديث الذكريات يهيج النفوس ويوقظ فيها كمائن الهوى والحنين أو الأسى والأنين.

أخذا يتمشيان بعد أن شربا الشاي وقضما شيئاً من الطعام، ودار بينهما الحديث حتى انتهى إلى المآلات: مآل عالم هنا وجماعة هناك ومذهب هنالك، ومآلاتهما كشخصين أو نظرتين وطريقين في الحياة، إلى أن وصلا إلى مربط الفرس ومكمن الخلاف...

- هل ما زلت تؤمن بالدين والموروث؟
- ولماذا لا أفعل؟!
- أنت رجل درس العلوم التطبيقية، وشرّقتَ وغرّبت، وتعرّفت على حضارات شتى، أفلم يغيّر ذلك في نظرتك للحياة شئياً؟

- بلى، علّمتني التجارب الكثير، فمحت مفاهيم أُورثتُها أو اخترتها وأثبتت أخرى، أمّا الإيمان الذي كنت أحمله فلم تزده هذه الحياة إلا وضوحاً وثباتاً.
- أنت إذن كسائر أبناء تلك البلاد ومختلف الطوائف؛ تحاكم المادة إلى العلم ثم تضع معتقدك في ركن عال مقدَّس لا يمسه التمحيص ولا يقربه الفحص والتدقيق.
- بل على العكس من ذلك، فالدقة والصرامة وعدم الانحياز والحكم المسبق، كل هذه ساهمت في تثبيت معتقدي.
- كلهم يقول مثل ما قلت، ولكل منهم حقيقته التي يظنها حقيقة، وما هي في الواقع إلا أفكار تجمّعت لديه بفعل الوراثة والسماع والنظر، وحّدها وسمّاها ديناً وأنزلها موضع الحقيقة المطلقة.
- وأنت لا زلت كما كنت، متشككاً مرتاباً في كلّ شيء.
- الشكّ طريق اليقين.
- إن أنت أحسنت سلوك الطريق! لكن إن كنت تخلط الشكّ باليقين بطلت أدواتك وفسد مسلكك ولن تجد حقيقة واحدة تركن إليها.
- بلى، تفسد كلّ المعتقدات والحقائق الزائفة وتبقى كلّ حقيقة أثبتها العلم.
- قل لي إذن، أليس العلم في تطوّر؟
- بلى، بالطبع. ولهذا أثق به دون غيره.
- وما دام في تطور فهو إذن ناقص!
- المعنى؟
- المعنى بأنك تضع إيمانك كلّه في شيء ناقص. وما دام قاصراً عن إدراك الحق كل الحق فما يقدّمه يحمل في طيّاته شيئاً من الخطأ والباطل، فأنت إذن تؤمن بالباطل.

- لأن أؤمن بالخطأ الذي يُصحح أحبُّ إليّ من أن أؤمن بأمر يخالف العقل أو يستحيل التوثّق منه.
- أمّا مخالفة العقل فهذه مسألة بسيطة يسيرة، فعقل العالم الصيني يختلف عن عقل العالم الهندي، وكلاهما يختلف عن عقل الغربي، وهكذا. وكم من مسألة حملها الناس على أنّها حقيقة علمية ثم نفاها العلم نفسه أو غيّر مسمّاها وصفاتها بعد مدة من الزمن. وهذا يعني أنّها ليست "حقيقة" وإن أُلبست لبوسها.

أضف إلى ذلك أنّ التجارب المخبرية علّمتنا أنّ لتغيّر الظروف تأثير مباشر على نتيجة الاختبار، فكيف إن كانت المسألة التي تلمز إليها غيبية لا تخضع لشروط التجريب والاختبار، أو كانت خاضعة لظروف وقواعد مختلفة كلياً عن تلك التي تعالجها في مختبرك؟

أما المسألة الأخرى فأكثر ضحالة ووهناً، فالغيبيات أنواع، منها المرتبط بالماضي ومنها المتعلق بالحاضر وغيرها بالمستقبل. ومنها ما يتناول المحسوس ومنها غير المحسوس، أفهل تحاكَم كلها بميزان واحد؟ ثم ها أنت تَرى نظريّات كثيرة لاقت رواجاً كبيراً وقبولاً بين العلماء رغم أنّها لم تَعدُ كونها "نظرية" لم توضع موضع الاختبار لاستحالة ذلك مكاناً أو زماناً أو مادة. فبالله عليك، كيف للعلماء أن يختبروا نشأة الكون أو تطوّر الكائنات في مختبراتهم، أو يحكموا على نوايا وإرادات المخلوقات، وكيف لهم بأن يقطعوا بأمر مظنون حصل قبل ألفي سنة أو قبل عشرين ألف سنة! إنما هم يبحثون عن إشارات ودلائل لمحاولة رسم صورة لما كان، بيد أنّ أحداً منهم لا يقدر على الجزم بنتيجة بحثه. هذا فيما وصلتنا منه بقايا وآثار، فكيف بما وصلك عنه شيء من روايات اختلط فيها الصحيح بالسقيم، ثم كيف بما لم يصلك منه أثر من نص أو رسم أو حجر، وكيف إذن إن كان نبوءة مستقبلية ليس غير الدهر يظهرها للعيان؟

- ولماذا إذن أؤمن بها ما دام لا شيء يثبت صحتها؟
- يا عزيزي، أنت لا تؤمن بأي نبوءة أو أسطورة بلغت مسامعك، وإلا كنت كالجراب الفارغ يقبل كل شيء ولا شيء، وإنما تنظر في الأمور والمسائل وتتحرّى فيها الصواب. أما الغيبيات فتكِلها إلى صِدق المخبر؛ فإن كنت تؤمن أنه نبيّ مرسل ناطق بالوحي مُبلِّغ عن السماء تلقيتَ بشارته ونذارته بالقبول والتصديق، وإن أنت لم تؤمن بنبوته أصلاً فلست مطالَباً بما وراء ذلك.

وهكذا استمر الجدال بينهما دقائق أخرى ثم انصرفا مع مغيب الشمس خلف الأفق المفتوح وقد سال دم السحاب المبعثر وجمد سطح الماء اللامع، ومضى كل منهما إلى غربته حاملاً معتقده في قلبه ولسانه في جرابه يخرجه كالمسدس متى احتاج إلى هجوم أو دفاع.

حال هذين الصاحبين كحال كثير من الناس، منهم من يُحاكِم العلم إلى العلم، ومنهم من يُحاكِم العلم إلى الدين، أو الدين إلى العلم، أو الموروث إلى المعقول، أو المعقول إلى المنقول، وهكذا.

وليس في الأمر حَرَج إن كان القصد طلب الحقيقة وسبر أغوارها ثم أحسن الباحث اختيار الأدوات والوسائل، لكن المشكلة كل المشكلة في تقديس العلم التجريبي ووضعِه مع ما يعتريه من نقص موضعَ الحقِّ المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإنّ الذي تخدعه حواسه التي يعالجها كل يوم خلال سعيه في الحياة ويسير رغم ذلك على هداها لسرعان ما سيخدعه عقله المحدود وعلمه الناقص. وفي هذا القدر كفاية لأولي الألباب.

المعتقد

متعلّق آخر من متعلّقات النفس البشرية لكنه هذه المرة لجهة ثمرة من ثمارها لا لجهة ذاتها. فالمرء يُعرف بأفعاله، وهي في الغالب نتاج أفكاره، وهذه بدورها عصارة تجاربه ونظره ومطالعاته، فهو إذن باختصار خلاصة تجارب وأفكار ومعتقدات تمشي على قدمين وتنطق بلسان وشفتين.

حتى هنا يتقاسم الناس هذا الوصف فلا عبودية ولا أصنام، لماذا إذن اخترت الكلام عن المعتقد وإفراد باب له - أو نافذة - ضمن حديثي عنها؟

الأمر في الحقيقة بسيط، وذاك أنّ من الناس من يعامل معتقَده على أنه حق مطلق لا يقبل القسمة ولا يحتمل الخطأ، وكل ما سواه مخالف له بل وعدو تجب محاربته والتشهير به والتحذير منه، فهذا تأليهم المعتقد مع ما فيه من جوانب بشرية ومزج بين الحقائق والأباطيل، فماذا نعني بالمعتقد؟

درَج الناس على تصنيف أفكارهم ضمن خانات وأبواب متنوعة بحسب مصدرها وأهميتها وارتباطها بحياتهم اليومية أو تجاربهم الروحية، فنجدها تنطوي على أشياء من قبيل الظن واليقين، والقديم والحديث، والنظري والتطبيقي، والكسبيّ والوراثي، والجدي والهزلي، وهلم جراً. وترى كل جماعة من البشر قد خصّت مجموعة من هذه الأفكار باهتمام بالغ حتى رفعتها فوق ما عداها ووضعتها في خانة المسلّمات المبدئية الحاكمة على ما سواها، وسمّتها معتقداً، بمعنى أنهم موقنون بصدقها وصحتها وأنها مهيمنة على غيرها من الأفكار والأعمال والموروثات. وقد يكون هذا المعتقد دينياً أو فلسفياً أو اجتماعياً غير أنّه بالنسبة لحامله أمر قطعي مسَلّم به حاكم على غيره.

والناس أصناف، منهم المتشكك المرتاب، ومنهم المتجبر الأعمى، ومنهم اللامبالي بالمشاعر أو الأفكار، ومنهم الحساس المفرط في توخي سلامة العلاقات بغض نظر عن المبادئ، وهكذا. فليسوا جميعاً يعامِلون معتقداتهم بنفس الطريقة ولا يولونها درجة الاهتمام ذاتها أو ينظرون إليها من الزاوية عينها وإن كانت نظرياً تعني لهم الأمر ذاته.

وعبدُ المعتقدات والقناعات هو الذي يأتمر بأمرها دون وعي ولا تفكير، فيرى أنّ ما وافقها خير كله، وما عارضها شر مهما كان وصفه وأصله. وهو الذي يحبها ويكنّ لها كلّ تقدير، فيدعو لها الآخرين ويشنّع على من لا يوافقونه النظر ويشاركونه الفكَر، ولا يدينون بدينه أو يتلاقون معه في يقينه، كأنما يريد إكراه الخَلق أجمعين على أن يكونوا تبعاً له ولمعبوده أكان جماداً أم فكرة، أو كائناً حياً أم جيفة نخِرة.

وعبد المعتقدات هو الذي لا يَرضى الطعن بها أو التشكيك، أو إحالتها على الدراسة والتحقيق، أو غربلتها لتمييز الفاسد من الصالح، أو تنقيتها مما لا يوافق العقل، أو مما تحوّر خلال سلاسل التوارث والنقل. فهو يأخذها، أو يعبدها، جملة واحدة كما عرفها وارتضاها، ولو أنها وصلته قبل يوم، أو بعد، من يومه الذي وعاها فيه لكانت لَتختلفُ زيادة أو نقصاناً، فهي إذن ذات نقص، وما كان ناقصاً فلا يوصف بالكمال، فكيف يظنها كاملة مقدّسة لا تشوبها الشوائب ولا تقرَبها العيوب؟

وقد تكون الفكرة أو المعتقد قمة في الاستقامة والسداد والنقاوة والحسن، لكن يأتي الخلل من جهة معتنِقها وفهمه، ثم تقديسه فهمَه ونبذ بقية الأفهام ولو كانت أصوب وأقوم.

وقد يعتنق اثنان فكرة ما، ويدافعان عنها دفاع المستميت، أحدهما عابد لها والآخر متبع للحق. تسأل نفسك، أو إياي، كيف؟

ببساطة لأنّ أحدهما مقتنع بصواب الفكرة واستقامتها فهو يدافع عن الحق بحسب يقينه أو غلبة ظنه، فإذا تبين له الحق في غيرها انتقل إلى ما يراه صواباً وحقّاً مطاعاً دون إصرار أو عناد أو جحود ونكران بخلاف ذلك الذي يدافع عنها ويحامي لأنها فكرته فحسب، ولو لم يدرسها أو يفهمها أو يشبعها نظراً وتمحيصاً، فهذا عبد النظرية والاعتقاد، ولو دفع ببراءته في كل ناد.

الحداثة

«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بذِرَاعٍ، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»

حديث شريف

كانتا منذ أيام الصبا وعنفوان الشباب على طرفي نقيض؛ "لبنى" الرصينة المتزنة الخلوقة والـ"محافظة" كما يحلو لمتفيهقي هذا الزمان وصفها. و"نيرمان" التي تصغرها بسنتين، وهي الضحوك الجريئة المجادِلة الكثيرة الخصام والـ"متحضّرة" أو "العصرية" برأي ووصف الشلة عينها. واليوم التقتا في مناسبة عائلية بعد فراق سنين، وكأنّ الأقدار جمعتهما لتفرغ كل منهما على صاحبتها بعض ما خبأته لها على مَرّ الأيام وتراكم التراشق بالأفكار والأقلام.

بدأ الحديث أولاً عن الدنيا وتجاذباتها والحياة اليومية فتحدياتها حتى انتهى بهما المطاف إلى العقدة المستعصية على الحل منذ أن كانتا بل ربما منذ كان الإنسان! وكانت "نيرمان هي المبادرة بالهجوم:

- لن تتغيري يوماً ما دمت تتمسكين بهذه الأفكار القديمة البالية والتي أكل الدهر عليها وشرب. لا بد أن تتحلي بالجرأة وتلقي عن كاهلك هذه الأوزار وتعانقي الحياة بكل أريحية و"صدر رحب" وسترين كيف ستبتسم لك الأيام ويحالفك الحظ في كل ما ترومين وتنالين كل ما تشتهين.

- ولماذا تخلطين الحابل بالنابل و"شعبان" بـ "رمضان"؟! ما دخل الأفكار البالية كما تصفينها بحالتي التي أنا عليها؟ أتظنيني إن أنا أطلقت شعري وتمايلت في سيري سأرقى السحاب وأبلغ النجوم؟ أو أنني إن لويت لساني ومزجت بالأعجمية كلامي فإن الناس سيتقبلون قولي بكل سرور.
- بالطبع يا عزيزتي، فالناس تحكم على المظهر لا على الجوهر. ثم إن تقاليدك وثقافتك هذه لا تناسب عصرنا، عصر العولمة والانفتاح، فتسبب لك النفور وتجعل الحكم بـ "رجعيتك" كالدليل بين يديك يحذّر الناس منك وينفرهم. ثم إنك امرأة، وأنت أدرى بالضيم الذي لحقَ النساء بسبب تقاليدك هذه وثقافتك المهترئة.
- بالله عليك أفي ما تقولينه رائحة منطق أو عقل أو علم؟ وهل ثقافتك أنت التي تفخرين بها حققت العدالة والمساواة، وهل قدَّمت الهناء والرخاء، وهل جلبَت السلم والأمان؟ لم تَعُد علينا حضارتك المسخ هذه إلا بالويلات والحروب والدمار. ثم انظري إلى الغرب الذي تعشقين، أتظنينه ثقافة واحدة؟ بل هو ثقافات متعددة ومذاهب ومدارس مختلفة وتاريخ حوى ما حوى من جيد التجارب وسيئها.
- قد يكون مزيجاً من التجارب والحضارات، هذا صحيح، غير أنهم عرفوا كيف يتعايشون برغم اختلافاتهم ويتوحدون واضعين جانباً صراعاتهم وتناحرهم. بينما قومك الذين تفخرين بهم وإليهم تنتسبين لم ينفكوا يتقاتلون منذ ألف سنة بل يزيد حول مسائل العقيدة والدين والقبيلة والنسب، فأي فخر في هذا.

ثم إن الغرب الذي تكرهين لم يَبلغ ما هو عليه اليوم من المجد والسؤدد إلا بعد أن طوى صفحة حروبه الدينية جانباً ونحّى الكنيسة عن السلطة وحصرها بين جدرانها ونزع منها سطوتها على رقاب العباد، فذاقوا طعم الحرية والهناء، وعندها فقط ابتسم لهم الدهر وأغدقت عليهم الحياة خيراتها.

- والله لو أنّ غيرك قالت مثل هذا الكلام لعددتها من المجانين. وهل تظنين أن بني قومي هم من أشعلوا الحروب العالمية ليدمروا المدن ويحرقوا البشر والشجر وينفوا عن الإنسانية أبسط صفاتها ويحرموا المرء أبسط حقوقه؟ أم أنّ هذه الحروب كانت زمن تسلط الكنيسة والدين؟

لا يا عزيزتي، إنما الحروب صنعة الساسة والحكام ولعبة الدول والمصالح، وعليها يتنازعون أياً كانت مللهم ونحلهم وأعراقهم وثقافاتهم. الفارق الوحيد هو في درجة التوحش التي يمكن أن يصلوا إليها دون رادع من الشعب أو الثقافة أو الضمير أو الدين. أما ما خلا ذلك فاقتناص فرص وابتغاء مكاسب مثلهم مثل كل شعوب الأرض.

- صحيح، ولكنهم لم يقتلوا الناس باسم الدين أو ينسبوا جرائمهم إلى خالقهم، بل أبدوا ندمهم ورفعوا راية حقوق الإنسان عالية لا تعلوها راية ولا تطمسها غاية.
- أي حقوق وهم ينهبون الدول الفقيرة ويستعبدون ناسها ويسرقون ثرواتها. كل ما حصل أنّ شكل الاستعمار والاستعباد تغيّر وتلطّف، لكن أنيابه لا تزال مغروسة في الدول الفقيرة والمستضعفة. وهل تغني هذه الحقوق وهي تُعطى لأناس وتحجَب عن آخرين، ألم تري كيف رحبوا بالأصفر والأشقر، وكيف أغلقوا أبوابهم بوجه الأسمر والأسود. وكيف يضيّقون عليهم، وكيف لا يرون في الوافد عليهم الغريب عن حضارتهم إلا أوراقه وأمواله؟
- يا عزيزتي، إن هؤلاء القوم يحترمون العقل ويحفظون الحقوق. وعندما تنتشر فيهم ظاهرة سيئة فإن مفكريهم ينتقدونها وشعوبهم تقوّمها، بخلاف مجتمعك الذي يتبع رئيسه كالقطيع يسمع له ويطيع دون تفكير أو تقويم أو فهم أو علم. ثم انظري إلى علماء العرب والمسلمين، متى بنوا حضارتهم؟ أليس بعد ترجمتهم علوم اليونان

والإغريق؟ ولولا ذلك لكنا لا نزال نقبع خلف الجمال وفي خيام الشعر نروح ونغدو في الصحاري والمراعي والواحات.

- هذا خلط وتزوير دون ريب. فانحطاط القوم اليوم لا تصح نسبته إلى من أفلح وتألق في الماضي القريب أو البعيد. وآبائي الذين تعيرينني بهم بنوا حضارتهم على أنقاض أمّتين حكمتا العالم قروناً فدانت لهم شعوبهما دون إراقة كثير دم أو إكراه لأهل البلاد. وقد بنوا كثيراً مما بنوه وطوروا غير قليل مما طوروه قبل انفتاحهم على ترجمة علوم الأعاجم الذين ذكرت وغيرهم. ثم إنهم لما شرعوا يُعرّبون ويدرسون هذه العلوم القديمة الوافدة فإنما أقبلوا عليها إقبال الند للند، لا اتباع المغلوب للغالب أو الضعيف للقوي، فأخذوا منها وردّوا، وقبلوا ورفضوا، وزادوا وأضافوا، بعكس منظّري الحداثة في زماننا هذا الذين ينقلون لنا فلسفة الغرب وسحره ومكائده من موقع الذلة والخضوع، كمن يتبرأ من أمّه بغية نيل رضا خالته أو زوجة رئيس العشيرة، فلا هو أرضى أمّه وحفظها ولا نال رضا الغريبة فتبنّته، حتى لو أوحت له بذلك أو منّت عليه بقطعة حلوى مرة أو شيء من ملاطفة ومديح مرة أخرى، غير أنّه لن يصبح قَطّ ابنها كما لن تصبح هي قط أمّه. وإنما هو انسلاخ من ذاته وانحطاط عن درجته إلى درك من الضياع وحضيض من الظلمات لا يستطيع منه خروجاً وليس له إلى الخلاص رغبة ولا نية.

- إذن أنت تفضلين العيش في الماضي والترهات على الانتقال إلى الحضارة، حضارة النور والعلم والانفتاح.

- لا قطعاً. بل أعمل جاهدة لأحسّن من ظروف حياتي وحياة المحيطين بي، وآخذ من كل فكر خلاصته ومن كل طريقة صفوتها، لكني لا أسَلّم تسليم العمياء الغبية لكل من برز وتسوّد أو نال الدعاية وادعى المجد والسؤدد.

- كلام شاعري جميل، والفعل عنه جد ناء وبعيد.

- هو كذلك في نظرك، وفي نظري هو وجهة سير ومشروع حياة.
- فلتهنئي إذن بالتخلف والرجعية وحكم الطغاة المستبدين!
- تقصدين العملاء الذين زرعهم فينا غربك اللعين ومكّنهم من التسلط على رقابنا فنبقى مقموعين مقهورين ويبقى هو السيد المطاع والناهب المرهوب الجانب.

واستمر الجدال بينهما على هذا المنوال، حتى خشي الحاضرون أن يتطوّر إلى شد الشعر وتمزيق الثياب، فحالوا بينهما بالكلمة والذراع، وتمكنوا بعد لأي وجهد من فضّ النزاع، ومضت كل منهما في دربها، واحدة تتمسك بالماضي البعيد الجميل، الذي أزهر على تقطّع في الفصول وأينع على تباعد في الزمان واسوداد في البستان، وأخرى اختارت الانسلاخ من حاضرها والارتماء في أحضان الغالب وثقافته طامعة في أن ينالها من زخرفه وبهجته نصيب ومن مجده وسؤدده حظ قل أو كثر. وإن لم يكن لا هذا ولا ذاك فلا أقل من أن تُنسب إليه فتشعر بالنشوة والزهو وتسكر بخمر زائفة مغشوشة، شاربها ومعتقها وبائعها ومناولها جميعهم يدرون أنها مغشوشة، لكنهم جميعاً مصرّون على التمتع بها والانشراح لشربها ولو كانت مُرة المذاق مريضة المظهر كئيبة المجلس ووبيلة العواقب.

وهكذا حال العبد المستسلم الضعيف مع صنمه المتسيّد المسيء، يقبل منه عواره ويلتزم جواره ويرضى بجوره ويُسرّ بحرمانه ومنعه وبإقصائه وظلمه، ثمّ يبرر لنفسه فيسمّي القبح جمالاً والقِصر طولاً والشحّ جوداً والجور عدلاً وإنصافاً، فكيف يهتدي مَن كان حاله حال هذا العبد الذليل الرذيل وكيف يصلح شأن من رضي لنفسه هذا المقام الوضيع الحقير.

تحطيم الأصنام

اعلم أيها العزيز أنّ الأصنام كما تُصنع خفية وعلانية، فإن تحطيمها ممكن وأسبابه دانية، وسلاحه همّة ماضية، وعزيمة صلبة عاتية، وضربة سديدة قاضية، وفكرة برّاقة راقية، ونفس إلى ربها تواقة، وإلى الحريّة محلّقة خفّاقة، لا تَهاب في سبيل غايتها الصعاب، ولا تخشى من زمرة الصنم العقاب، ولا ترجو من غير مولاها الجزاء والثواب.

غير أنّ لكل داء دواء، ولكل مُخَلِّص أعداء، ولكل صنم خدم أوفياء، وعليه فأوّل خطوات هدم الأصنام معرفتها، وفهم حقيقتها، وإزالة أسباب بقائها، وقهر النفس على إلقائها. وقد يكون الهدم سهلاً سريعا، إلا أن يكون الصنم مستعصياً منيعا، فلا بد من الحيلة والإرادة، وشن الحرب دون هوادة، واستشارة أهل الفن والخبرة، والتزام صحبة الصالحين والبررة، وقبل هذا وبعده، الاعتماد على الله وحده، والصدق في رجائه، والإلحاح في دعائه.

وقد علمتَ إن كنت قرأت سورة الأنعام، كيف فعل أبوك إبراهيم بالأصنام، وكيف تجرّأ على القوم وعارضهم، وعلى المعبودين فحطمهم، وعلى المعتقدات ففنّدها، وعلى الأوثان فأسقطها، وعلى الموروثات فأجهدها، فلم يقدروا عليه بالحجة والبرهان، فاستغاثوا بالتكبّر والنكران، وأوقدوا له أعتى النيران، ليجعلوه عبرة لمن يعتبر، ودرساً لمن يدّكر، فوقاه الله حرّها وأذاها، ومَنّ عليه بالنجاة من لهيبها ولظاها، بعد أن مكث فيها وقتاً ليس بالقصير، وابتلعته من دون حَول منها ولا تدبير. غير أنّ القوم وقد رأوا المعجزة الباهرة، رفضوا التسليم للحقيقة الظاهرة، فكادوا له وعليه جاروا، حتى فارقهم بمن آمن معه وإلى فلسطين ساروا، ودرب الإسلام لربهم ارتضوا واختاروا.

وتمرّ الأيام والسنون، وتظهر أصنام ويظهر لها مكسرون محطّمون، بالسيف والسلطان، والعدل والميزان، والقول واللسان، والكلمة والبيان. ويدور الدهر دورته مرات عديدة، حتى ينتهي إلى مستقر الخليل في الأرض المباركة المجيدة، وقد غصبها الظالمون، وعاونهم بجبلهم المجرمون، وبصمتهم وتواطئهم حكام مسلمون، منبطحون خانعون، لعدوّهم راكعون، ولأمانتهم بائعون مضيّعون. فطغى الغزاة وتجبّروا، ودمَ الأبرياء سفكوا وأهدروا، وقال المثبطون هم اليوم آلهة جبّارة، لا يُردّ أمرها ولا يعزب عن علمها مجرّة أو حارة. لكنّ أبناء إبراهيم عليه السلام، في غزة هاشم كوكب بلاد الشام، حطَّموا قيودَهم وانطلقوا، وأستارَ بيت الصنم قَطّعوا ومَزّقوا، ومعبودَ العرب والعجم الزائف كسروا هيبته، وبالتراب مرغوا أنفه وجبهته، وفتتوا صنم جبروته، وعِلمه وملكوته، وإلى إذلاله أسرعوا، وصنم سلاحه مزّعوا، وأبطلوا سِحر علوّه، وأطفَؤوا بريق صورته وسموّه، فهالَ فعلُهم الأصاغر والأكابر، فتكالب عليهم كل منافق وفاجر، فشدوا عليهم الخناق، وأَحكموا على أنفاسهم الإطباق، فأبى الرجال الاستسلام، وفضلوا خوض بحر الموت الزؤام، فتضاءلت أمام عزمهم الميركافاه، ولم يعد يعرف الظالم وجهه من قفاه، فلجأ ومن معه للحيلة والخديعة، والمؤامرة الوضيعة الشنيعة، ومكروا مكرهم، وعند الله مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، وعلى الله الاتكال، وإليه المرجع والمآل.

فيا من عاش ورأى تحطيم الأصنام، قم إلى نفسك واحمل الفأس والحسام، ولا تتركن فيها صنماً واقفا، ولا وثناً باطلاً وزائفا، ثم التفت إلى ما كان منها في قومك عالقا، فعاجلها التحطيم إن كنت صادقا، واستنفر المؤمنين الصادقين، والأباة الميامين، العالمين العاملين، واحملوا عليها حملة رجل واحد، غضنفر لا راقد أو قاعد، عساه يُكتب لكم الخلاص، وتدخلوا الجنة دون قصاص.

الختام

لكل شيء أجل وختام، تضاءل صِغراً أو تخطى في ضخامته الغمام، وها أنذا أصل معكم إلى نهاية الطريق، ولم تنته المهمّة أو يخفت البريق، ولكنّ علماً بلا عمل وبال، والحصيف من استغنى بما يُفعل عمّا يُقال، فأكتفي بهذا القدر من الإيضاح، والشرح والإفصاح، راجياً أن يكون ما سبق أدنى إلى الصواب، وأنأى عن الخطأ والزلل ومستوجِبِ العقاب، وأن يكون كالشمس في كبد السماء، وأنه لوجه الله خالص دون رياء، وأن يلاقي لدى المُطالِع أذناً مصغية، وقلباً متلهّفاً وقراءة واعية. فإن وجد القبول عمِل بما عَلِم، وجهر وما كتم، ولكاتب هذه السطور دعا بالغفران، ولهج إلى الكريم المنّان، أما إن وجد غير ذلك قوّم ما استطاع سبيلا، فكان لعثرات الكرام جابراً ومقيلا، والله من وراء القصد أولاً وآخرا، وله الحمد باطناً وظاهرا، ثم الصلاة على الرسول المصطفى، وعلى آله وصحابته أهل المروءة والوفا، وآخر الكلام، تحية والسلام.

تم بحمد الله

الفهرست

صدر للمؤلف

- لم أعد لبنانياً _ ديوان شعر _ 2011
- املأ كؤوسك من دمي _ ديوان شعر _ 2012
- ما بين الظلمة والنور _ ديوان شعر _ 2020
- حكايا المشرقي _ مقالات قصصية _ 2020
- باذر الخير _ رواية _ 2021
- مذكرات الفتى والفتاة _ مجموعة شعرية للناشئة _ 2022
- فتنة _ رواية _ 2022
- خذلان _ ديوان شعر _ 2025

يسلط هذا الكتاب الضوء على أصنام غير التي اعتاد الناس رؤيتها في الكتب والصور، أو المواقع الأثرية من ذهب وحجر، إنها أصنام من نوع آخر، أصنام اتخذها الإنسان عامداً أو غافلاً لكنه اتخذها ورضي بها، وأسكنها من فؤاده المكان الأعلى، وأحلّها من عقله المقام الأسنى، فأصبحت قبلته المقصودة، وغايته المنشودة، وكعبته التي يطوف حولها عمُرَه، وإلهه الذي يطيع في السر والجهر أمرَه، فشيّد لها المعابد، ودعا إليها القائم والقاعد، أو أحبها حب قيس لليلى، فأفنى فيها حياته وأبلى، وفضّلها على الخلق أجمعين، ونسي لأجلها الأقربين والأبعدين.



9 782956 817291